من روائع
القصص القرآنى

بكر محمد إبراهيم

المقدمة

الحمد لله وحده والصلاة والسلام على من لا نبى بعده .

أشهد أن لا إله إلا الله وحده لاشريك له وأشهد أن سيدنا محمداً عبده ورسوله وصفيه من خلفه وخيرته من خلقه.

وبعـــد ،،،

فهذا كتاب فى قصص القرآن يتناول بأسلوب بسيط كثيرا من القصص الواردة فى القرآن الكريم مثل قصة أهل الكهف وقصة لقمان وقصة يأجوج ومأجوج وغيرها من القصص القرآنى الذى يحوى الحِكم والعبر والأقاصيص الشيقة الرائعة وهى فى نفس الوقت قصص من الحق لورودها فى القرآن الكريم.

ومن المعروف أن للقصص غرض هام فى كتاب الله الكريم حيث يضم القصص والحكم والعبر والأوامر والنواهى والناسخ والمنسوخ والمحكم والمتشابه والعام والخاص والمطلق والمقيد .

وهو كتاب أحكام وشريعة وعبادات ومعاملات وتاريخ وقصص ، وقصص القرآن هى أروع القصص وأحسن القصص مع قصص الأنبياء لأنها ذكرت فى القرآن الكريم وهذا الكتاب يشمل ١٢ قصة من قصص القرآن الكريم.

نفع الله بها وأثاب من أخرجها ومن قرأها واستفاد منها فى دينه ودنياه .

وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين.

المؤلف

بكر محمد إبراهيم

قصص بنى إسرائيل

قتل موسى للقبطى

كان موسى عليه السلام يدين بدين آبائه دين إبراهيم واسحق ويعقوب ويوسف دين الإسلام . فلما علم فرعون منه ذلك أبغضه ، ونفاه عن العاصمة ومنعه من دخولها وهى مدينة ممفيس.

وفى يوم دخل المدينة فى غفلة من أهلها متنكرا أى مغيرا هيئته حتى لا يعرفه أحد، فوجد فيها رجلين يقتتلان ، رجلا من شيعته من بنى إسرائيل ورجلا من القبط (المصريين) وهم أعداء لبنى إسرائيل، فاستغاثه الذى من شيعته وكان هذا القبطى يريد أن يأخذ الإسرائيلى ليعمل فى السخرة لفرعون، فاستغاثه هذا الرجل ليخلصه من المصرى فأغاثه موسى وخلصه من قبضته بوكزة (ضربة) قضت عليه، فاستشعر موسى الندم على ما حدث منه ، فاستغفر ربه غفر له وعفا عنه.

قال تعالى :

﴿ وَدَخَلَ الْمَدِينَةَ عَلَىٰ حِينِ غَفْلَةٍ مِّنْ أَهْلِهَا فَوَجَدَ فِيهَا رَجُلَيْنِ يَقْتَتِلَانِ هَٰذَا مِن شِيعَتِهِ وَهَٰذَا مِنْ عَدُوِّهِ فَاسْتَغَاثَهُ الَّذِي مِن شِيعَتِهِ عَلَى الَّذِي مِنْ عَدُوِّهِ فَوَكَزَهُ مُوسَىٰ فَقَضَىٰ عَلَيْهِ قَالَ هَٰذَا مِنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ إِنَّهُ عَدُوٌّ مُّضِلٌّ مُّبِينٌ (١٥) قَالَ رَبِّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي فَاغْفِرْ لِي فَغَفَرَ لَهُ إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ (١٦) ﴾ [القصص]

فموسى عليه السلام لم يقتل القبطى عمداً ولا خطأ رغم شدة العداوة بين القبط وبنى إسرائيل وإنما مات الرجل قضاء وقدرا لأن الضرب بقبضة اليد لا تقتل غالبا.

ومع ذلك فقد رأى موسى أن موت الرجل على يديه ذنب يجب الاستغفار منه، وأن مثله لا ينبغى أن يكون سببا فى موت آحد حتى لو كان من أعدائه إذا أمكن دفعه من غير قتله.

فالأنبياء منزهون عن المعاصى صغيرها وكبيرها ، قبل البعثة وبعدها، وقد عزم موسى عليه السلام بعد قتل هذا القبطى ألا يكون نصيرا لمجرم من المجرمين ، سواء كان من شيعته (جماعته) أم كان من عدوه، قياما بشكر الله على نعمه ﴿ قَالَ رَبِّ بِمَا أَنْعَمْتَ عَلَيَّ فَلَنْ أَكُونَ ظَهِيرًا لِّلْمُجْرِمِينَ (١٧) ﴾ [القصص]

أى بسبب ما أنعمت على من القوة والعلم والحكمة فلا ينبغى أن أكون إلا نصيرا للحق.

فأصبح موسى فى المدينة بعد قتل القبطى خائفا من انتقام فرعون وملأه إذا علموا أن الرجل قد مات على يديه خاصة أن هذا القبطى كان من أعوان فرعون وقد تكون الوشاية (الوقيعة) من هذا الرجل الذي استغاث به فى الأمس فهؤلاء القوم قد تربوا فى ظل العبودية وفسدت أخلاقهم وصنعت لديهم الوازع الدينى والأخلاقى وتخلقوا بطباع النميمة والخيانة والغدر وانكار المعروف وجحده.

أخذ موسى يترقب الخبر ويراقب سير الأحداث لينجو بنفسه فى الوقت المناسب فإذا به يجد على أطراف المدينة هذا الرجل الذى استغاث به بالأمس يستنصر به مرة أخرى على قبطى آخر، فأنكر عليه موسى هذا الشجار والتعرض للمشاكل. فلما أراد موسى عليه السلام أن يبطش بالقبطى خاف الإسرائيلى أن يقتله موسى لسبق توبيخه وتعنيفه حيث قال له إنك لغوى مبين، فصاح الإسرائيلى بأعلي صوته قائلا: يا موسى أتريد أن تقتلنى كما قتلت نفسا بالأمس! ما تريد إلا أن تكون جبارا فى مصر تزهق الأرواح وتسفك الدماء وما تريد أن تكون من المصلحين كما تدعى.

يقول تعالى :

﴿ فَأَصْبَحَ فِي الْمَدِينَةِ خَائِفًا يَتَرَقَّبُ فَإِذَا الَّذِي اسْتَنصَرَهُ بِالأَمْسِ يَسْتَصْرِخُهُ قَالَ لَهُ مُوسَىٰ إِنَّكَ لَغَوِيٌّ مُّبِينٌ (١٨) فَلَمَّا أَنْ أَرَادَ أَن يَبْطِشَ بِالَّذِي هُوَ عَدُوٌّ لَّهُمَا قَالَ يَا مُوسَىٰ أَتُرِيدُ أَن تَقْتُلَنِي كَمَا قَتَلْتَ نَفْسًا بِالأَمْسِ إِن تُرِيدُ إِلاَّ أَن تَكُونَ جَبَّارًا فِي الأَرْضِ وَمَا تُرِيدُ أَن تَكُونَ مِنَ الْمُصْلِحِينَ (١٩) ﴾ [القصص]

لقد أراد موسى عليه السلام أن يبطش بالمصرى لأنه كان ظالما للإسرائيلى. إلا أنه عنف الإسرائيلى لأنه يعرض نفسه للمذلة والإهانة، ويلقى بنفسه فى المهالك.

والبطش قد يعنى الدفع بقوة والضرب وكان الإسرائيلى مؤمنا ولكنه كان سليط اللسان. وكان موسى عليه السلام ينصره لإيمانه وليس لمجرد العصبية لجنسه.

ولما كشف الإسرائيلى سر موسى عليه السلام وأنه هو الذى قتل المصرى، وصل الخبر إلى فرعون فجمع كبراء دولته ومستشاريه فأجمعوا على قتل موسى تملقاً لفرعون ونفاقا وزعموا أنه يهدد عرش فرعون.

وكان هناك رجل مؤمن يسكن ضواحى المدينة وكان له صلة بالقصر الملكى فجاء إلى موسى مسرعا، فأخبره بما عزم عليه فرعون وحاشيته، ونصحه بالخروج من مصر إلى أرض بعيدة حيث لا يعلم أحد بمكانه، فقبل موسى عليه السلام نصيحته. وخرج من المدينة خائفا من أن ينكشف أمر هروبه ، فيقبض عليه مجاملة لفرعون.

خرج موسى من مدينة ممفيس مسرعا فى خفية حتى وجد نفسه فى الطريق إلى مدين، يحث(أسرع) الخطى إليها داعيا ربه أن يهديه إلى سبيل الهداية.

يقول تعالى : ﴿ وَجَاءَ رَجُلٌ مِّنْ أَقْصَا الْمَدِينَةِ يَسْعَىٰ قَالَ يَا مُوسَىٰ إِنَّ الْمَلَأَ يَأْتَمِرُونَ بِكَ لِيَقْتُلُوكَ فَاخْرُجْ إِنِّي لَكَ مِنَ النَّاصِحِينَ (٢٠) فَخَرَجَ مِنْهَا خَائِفًا يَتَرَقَّبُ قَالَ رَبِّ نَجِّنِي مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ (٢١) وَلَمَّا تَوَجَّهَ تِلْقَاءَ مَدْيَنَ قَالَ عَسَىٰ رَبِّي أَن يَهْدِيَنِي سَوَاءَ السَّبِيلِ (٢٢) ﴾ [القصص]

وكان موسى عليه السلام خائفا شأن البشر ، ولكنه كان متوكلا على الله معتمدا عليه لا على قوته وحسن تدبيره. وعندما سلك الطريق إلى مدين لم يعتمد على علمه فى قص الأثر وتتبع النجوم وإنما اعتمد على هداية الله وتوفيقه وإن كان استخدام العلم لا غضاضة فيه.

وانتهى موسى إلى ماء مدين، وهى مدينة فى شبه الجزيرة جهة الشام بالقرب من خليج العقبة قبالة تبوك.

موسى والفتاتين:

وجد موسى عليه السلام عند الماء أمة من الناس -أى جماعة- يسقون دوابهم وأنعامهم، ووجد امرأتين تسوقان الغنم بعيدا عن الماء خوفا من مزاحمة الرجال ، فأشفق عليهما وسألهما عن حالهما وخبرهما فأخبرتاه أنهما لا يسقيان حتى ينصرف الرجال بعد فراغهم من السقى وأن الذى دفعهما للخروج عدم وجود رجل يكفيهما ذلك وأخبرتاه أن أباهما شيخ كبير ولعلهما لمحتا له أنهما ليس لهما زوج وأنهما خاليتان. وقد فطن موسى لذلك. ثم تولى إلى الظل فلعله كان يوما شديد الحرارة، وجلس يدعو الله تعالى أن ينزل عليه من بركاته ما يسد حاجته من الطعام وغيره.

قال تعالى :

﴿ وَلَمَّا وَرَدَ مَاءَ مَدْيَنَ وَجَدَ عَلَيْهِ أُمَّةً مِّنَ النَّاسِ يَسْقُونَ وَوَجَدَ مِن دُونِهِمُ امْرَأَتَيْنِ تَذُودَانِ قَالَ مَا خَطْبُكُمَا قَالَتَا لا نَسْقِي حَتَّىٰ يُصْدِرَ الرِّعَاءُ وَأَبُونَا شَيْخٌ كَبِيرٌ (٢٣) فَسَقَىٰ لَهُمَا ثُمَّ تَوَلَّىٰ إِلَى الظِّلِّ فَقَالَ رَبِّ إِنِّي لِمَا أَنزَلْتَ إِلَيَّ مِنْ خَيْرٍ فَقِيرٌ (٢٤) ﴾ [القصص]

ومكث موسى -عليه السلام- فى الظل يذكر ربه ويظهر افتقاره إليه بينما الفتاتان قد رجعتا إلى أبيهما، وهما فى عَجب وإعجاب من قوة موسى وشهامته ومرؤته، وحيائه وعفته ومهابته، وجماله ، وقد غمرهما حبه.

وقصت كل منهما على أبيها ما رأت منه، فأرسل إحداهما إليه يدعوه لضيافته وإعطائه أجره على السقاية إن أراد.

فجاءت إليه على استحياء وذلك شأن الصالحات تدعوه إلى بيت أبيها فأجاب الدعوة، وقال لها: امش خلفى وأشيرى إلي الطريق بحصوات ، وقيل إن إسم هذه الفتاة صافوراء، فلما انتهى إلى بيت أبيها وجلس عنده وقص عليه قصته من أولها إلى آخرها أمنه على نفسه، وبشره بنجاته من القوم الظالمين.

وبعض العلماء يرى أن هذا الشيخ هو نبى الله شعيب وبعضهم لا يرى ذلك ومنهم شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله ورضى عنه.

يقول الله عز وجل :

﴿ فَجَاءَتْهُ إِحْدَاهُمَا تَمْشِي عَلَى اسْتِحْيَاءٍ قَالَتْ إِنَّ أَبِي يَدْعُوكَ لِيَجْزِيَكَ أَجْرَ مَا سَقَيْتَ لَنَا فَلَمَّا جَاءَهُ وَقَصَّ عَلَيْهِ الْقَصَصَ قَالَ لا تَخَفْ نَجَوْتَ مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ (٢٥) ﴾ [القصص]

ولما قدم الشيخ الطعام لموسى -عليه السلام- قال له إنى لا آخذ أجرا على عمل المعروف فقال الشيخ إن ذلك ليس بأجر ولكنه حق الضيافة.

وأحس الشيخ بميل الفتاتين إلى موسى وخاصة عندما عرضت عليه إحداهما أن يستأجره ليظل معهم فى البيت ويكفيهما مؤنة العمل خارج البيت والتعرض للرجال، وأكدت طلبها هذا بوصفه بالقوه والأمانة والقوة على أداء الأعمال والأمانة على العرض والمال.

وعرف أبوها قدر الرجل وسمو مكانته وعلمه وأدبه من خلال حديثه معه، فأبى أن تكون العلاقة بينهما مجرد علاقة أجير بصاحب العمل، ولكنه عرض عليه المصاهرة ليبقى فى هذا البلد وفى بيته معززا مكرما لا يشعر بالغربة ولا يعانى من الوحدة والعزلة ففى المصاهرة امتزاج العواطف، واختلاط الدماء، واتصال الأنساب والأرحام، أما علاقة الأجير بصاحب العمل فهى علاقة عمل يؤدى وأجر يدفع.

عرض الشيخ على موسى أن يختار زواج إحدى الفتاتين على أن يكون مهرها أن يعمل لديه ثمانى سنين أو عشرة ووعده بأن يكون عند حسن ظنه، وأن يجد عنده حسن المعاشرة والمصاحبة والخلق الطيب.

﴿ قَالَتْ إِحْدَاهُمَا يَا أَبَتِ اسْتَأْجِرْهُ إِنَّ خَيْرَ مَنِ اسْتَأْجَرْتَ الْقَوِيُّ الأَمِينُ (٢٦) قَالَ إِنِّي أُرِيدُ أَنْ أُنكِحَكَ إِحْدَى ابْنَتَيَّ هَاتَيْنِ عَلَىٰ أَن تَأْجُرَنِي ثَمَانِيَ حِجَجٍ فَإِنْ أَتْمَمْتَ عَشْرًا فَمِنْ عِندِكَ وَمَا أُرِيدُ أَنْ أَشُقَّ عَلَيْكَ سَتَجِدُنِي إِن شَاءَ اللَّهُ مِنَ الصَّالِحِينَ (٢٧) ﴾ [القصص]

فانظر إلى صراحة هذا الشيخ مع موسى وتكريمه له، وحنوه وعطفه على بناته فى أن يختار الزوج لإحدى ابنتيه دون حرج عن حدهما وانظر إلى عدله وسماحته ثم لم يفرض على موسى واحدة بعينها ولكنه خيره أن يختار من يشاء منهما، حتى لا يصطدم رغبته أو يصادر رأيه، ثم إن اختيار موسى بنفسه لمن يتزوجها يجعل قلبه وهواه مع من اختار دون أن يتطلع إلى الأخرى فلربما فرض عليه إحداهما وهو يرغب في الأخرى ثم إن تخييره بين الفتاتين كفيل بأن ينزع من قلب الأخرى الأسى والمرارة

حتى لو فرض عليه زواج الكبرى دون الصغرى فما أعظم حكمة هذا الشيخ وعدله وانصافه ورحمته.

وهكذا كانت تلك الصفقة المباركة الرابحة حيث ظفر الشيخ بالقوى الأمين عاملا لديه وزوجا لابنته، وتظفر ابنته بالزوج الصالح المناسب يكفيها مؤنة العمل والخروج والتعرض للرجال ويعفها ويكون لها سكنا، ويظفر موسى بابنة هذا الرجل الصالح لتكون له سكنا ومودة ورحمة وقبل موسى هذا العرض وقبل الشرط واختار الزوجة ولم يقطع بالأجل، تأدبا مع الله تعالى ، وإفساحا لنفسه، فأجابه إجابة تلزمه بالثمانية وتلزمه بالعشرة.

﴿ قَالَ ذَلِكَ بَيْنِي وَبَيْنَكَ أَيَّمَا الأَجَلَيْنِ قَضَيْتُ فَلا عُدْوَانَ عَلَيَّ وَاللَّهُ عَلَىٰ مَا نَقُولُ وَكِيلٌ (٢٨) ﴾ [القصص]

خروج موسى وزوجه إلى الطور:

عاش موسى -عليه السلام- فى مدين عشر سنين حتى بلغ سن الأربعين ، وكان يرعى الغنم التى تعلم كيف يكون رعاية الأمم لأن هذه الرعاية تحتاج إلى صبر وجهد للحفاظ على الأغنام وإطعامها وسقايتها وإيرادها موارد العشب وأماكن الرعى وحمايتها من الذئاب وعلاج مريضها وغير ذلك من شئون الرعى فيتعلم الراعى خلق الصبر والاهتمام بالغير وشئون الطب والشجاعة التى تتطلبها حماية الأغنام والتصدى للسباع إلى غير ذلك.

ثم بدا له أن يرحل إلى مصر لزيارة أهله ، فأستأذن واالد زوجته

فأذن له فى الرحيل بع إنجاز الوعد واتمام العقد، فسار بأهله من مدين متجها إلى طور سيناء وهى مدخل مصر من جهة الشمال الشرقى.

ضربه الحنين إلى الوطن رغم أنه كان يعيش فى أمن وسلام توجه إلى مصر حيث بنوا إسرائيل الذين يعانون الهوان ، ورغم أنه خرج من مصر شريدا طريدا خائفا. وقد كان فى هذا الرحيل حكمة من الله تعالى حيث كان يعد موسى لتحمل الرسالة والنبوة ودعوة فرعون وملاه.

ويسير موسى حتى يضل الطريق فى ليلة مظلمة شاتية ، حتى يبصر من بعيد نارا عظيمة تتأجج فوق ربوة عالية، فخرج واستبشر ووقع فى قلبه شئ من الأنس حيث أن الله تعالى قد جعل للنار منافع وخاصة للمسافرين وقد كان العرب وغيرهم خاصة سكان الأماكن النائية والبدو يوحدون النار فى الليالى المظلمة ليهتدى بها الضال، وليأتى إليها الأضياف يتجدن عندها الطعام ومن يهديهم الطريق، ومن فوائد النار للمسافر التدفئة والإنارة وإخافة الوحوش فى الصحارى والبرارى.

قال تعالى فى سورة طه :

﴿ وَهَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ مُوسَىٰ (٩) إِذْ رَأَىٰ نَارًا فَقَالَ لِأَهْلِهِ امْكُثُوا إِنِّي آنَسْتُ نَارًا لَّعَلِّي آتِيكُم مِّنْهَا بِقَبَسٍ أَوْ أَجِدُ عَلَى النَّارِ هُدًى (١٠) ﴾ [طه]

وفى سورة النمل قوله تعالى :

﴿ إِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِأَهْلِهِ إِنِّي آنَسْتُ نَارًا سَآتِيكُم مِّنْهَا بِخَبَرٍ أَوْ آتِيكُم بِشِهَابٍ قَبَسٍ لَّعَلَّكُمْ تَصْطَلُونَ (٧) ﴾ [النمل].

والاصطلاء : التدفئة.

وفى سورة القصص قوله تعالى :

﴿ فَلَمَّا قَضَىٰ مُوسَى الأَجَلَ وَسَارَ بِأَهْلِهِ آنَسَ مِن جَانِبِ الطُّورِ نَارًا قَالَ لأَهْلِهِ امْكُثُوا إِنِّي آنَسْتُ نَارًا لَّعَلِّي آتِيكُم مِّنْهَا بِخَبَرٍ أَوْ جَذْوَةٍ مِّنَ النَّارِ لَعَلَّكُمْ تَصْطَلُونَ (٢٩) ﴾ [القصص]

كليم الله تعالى موسى :

ذهب موسى يطلب جذوة (شعلة) من النار ليهتدى بها السبيل ويستدفئ هو وأهله بها، ولكنه وجد الآية الكبرى ، وجد دفئ الأرواح وسعادة الدارين. وجد نور الهداية، رأى فورا فى كل مكان قد بدد ظلمات الليل البهيم (حالك السواد)، غمره النور من كل مكان، وجد شجرة تشتعل فيها النار فلا النار تحرق الشجرة ولا الشجرة تطفىء النار.

وناداه ربه تعالى بنداء العظمة والجلال، وألقى عليه تبعات (مسئوليات) الرسالة الإلهية لهداية بنى إسرائيل وفرعون والمصريين.

قال تعالى :

﴿ فَلَمَّا جَاءَهَا نُودِيَ أَن بُورِكَ مَن فِي النَّارِ وَمَنْ حَوْلَهَا وَسُبْحَانَ اللَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ (٨) يَا مُوسَىٰ إِنَّهُ أَنَا اللَّهُ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ (٩) ﴾ [النمل]

فحياه ربه بأعظم تحية، وأجمل منحة وأعظم تقدير أن بورك من في النار ومن حولها، أى بورك موسى الذى غمرته النار بأنوارها دون إحراق

وبورك من حولها من الملائكة الكرام الموكلين بتقديس المكان وتطهيره وحراسته، والمكان نفسه مقدس.

وفى سورة القصص يقول تعالى : ﴿ فَلَمَّا أَتَاهَا نُودِيَ مِن شَاطِئِ الْوَادِ الأَيْمَنِ فِي الْبُقْعَةِ الْمُبَارَكَةِ مِنَ الشَّجَرَةِ أَن يَا مُوسَىٰ إِنِّي أَنَا اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ (٣٠) ﴾ [القصص]

والوادى هو وادى طوى بطور سيناء بمصر ، والأيمن : المبارك ، وهو أيمن فى موقعه حيث يقع يمين القبلة والأيمن هو الغربى للجبل، أى جهة مغرب الشمس من الطور.

يقول تعالى : ﴿ وما كنت بجانب الغربى إذ قضينا إلي موسى الأمر وما كنت من الشاهدين ﴾.

لقد ناجى الله تعالى موسى من وراء حجاب ، فاستعذب موسى خطاب الله عز وجل، وانشرح صدره فأطال الخطاب، يقول تعالى فى سورة طه :

﴿ فَلَمَّا أَتَاهَا نُودِيَ يَا مُوسَىٰ (١١) إِنِّي أَنَا رَبُّكَ فَاخْلَعْ نَعْلَيْكَ إِنَّكَ بِالْوَادِ الْمُقَدَّسِ طُوًى (١٢) وَأَنَا اخْتَرْتُكَ فَاسْتَمِعْ لِمَا يُوحَىٰ (١٣) إِنَّنِي أَنَا اللَّهُ لا إِلَٰهَ إِلاَّ أَنَا فَاعْبُدْنِي وَأَقِمِ الصَّلاةَ لِذِكْرِي (١٤) إِنَّ السَّاعَةَ آتِيَةٌ أَكَادُ أُخْفِيهَا لِتُجْزَىٰ كُلُّ نَفْسٍ بِمَا تَسْعَىٰ (١٥) فَلا يَصُدَّنَّكَ عَنْهَا مَن لاَّ يُؤْمِنُ بِهَا وَاتَّبَعَ هَوَاهُ فَتَرْدَىٰ (١٦) وَمَا تِلْكَ بِيَمِينِكَ يَا مُوسَىٰ (١٧) قَالَ هِيَ عَصَايَ أَتَوَكَّأُ عَلَيْهَا وَأَهُشُّ بِهَا عَلَىٰ غَنَمِي وَلِيَ فِيهَا مَآرِبُ أُخْرَىٰ (١٨) قَالَ أَلْقِهَا يَا

مُوسَىٰ ﴿١٩﴾ فَأَلْقَاهَا فَإِذَا هِيَ حَيَّةٌ تَسْعَىٰ ﴿٢٠﴾ قَالَ خُذْهَا وَلا تَخَفْ سَنُعِيدُهَا سِيرَتَهَا الأُولَىٰ ﴿٢١﴾ وَاضْمُمْ يَدَكَ إِلَىٰ جَنَاحِكَ تَخْرُجْ بَيْضَاءَ مِنْ غَيْرِ سُوءٍ آيَةً أُخْرَىٰ ﴿٢٢﴾ لِنُرِيَكَ مِنْ آيَاتِنَا الْكُبْرَى ﴿٢٣﴾ اذْهَبْ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ إِنَّهُ طَغَىٰ ﴿٢٤﴾ قَالَ رَبِّ اشْرَحْ لِي صَدْرِي ﴿٢٥﴾ وَيَسِّرْ لِي أَمْرِي ﴿٢٦﴾ وَاحْلُلْ عُقْدَةً مِّن لِّسَانِي ﴿٢٧﴾ ﴾ [طه]

وكان هذا النداء من الله تعالى لموسى بكيفية لا نعلمها فنحن نؤمن بما جاء فى ذلك دون تأويل والكلام صفة من صفات الله تعالى.

وطلب موسى من ربه أن يبعث معه أخاه هارون وزيرا ونبيا وأن يحل عقدة من لسانه لينطلق فى فصاحة وبيان لتبليغ رسالة ربه لهذا الجبار المسمى فرعون وبث موسى خوفه وشكر لربه ما كان من عداوة فرعون له بعد قتل المصرى قال

﴿ قَالا رَبَّنَا إِنَّنَا نَخَافُ أَن يَفْرُطَ عَلَيْنَا أَوْ أَن يَطْغَىٰ ﴿٤٥﴾ قَالَ لا تَخَافَا إِنَّنِي مَعَكُمَا أَسْمَعُ وَأَرَىٰ ﴿٤٦﴾ فَأْتِيَاهُ فَقُولا إِنَّا رَسُولا رَبِّكَ فَأَرْسِلْ مَعَنَا بَنِي إِسْرَائِيلَ وَلا تُعَذِّبْهُمْ قَدْ جِئْنَاكَ بِآيَةٍ مِّن رَّبِّكَ وَالسَّلامُ عَلَىٰ مَنِ اتَّبَعَ الْهُدَىٰ ﴿٤٧﴾ إِنَّا قَدْ أُوحِيَ إِلَيْنَا أَنَّ الْعَذَابَ عَلَىٰ مَن كَذَّبَ وَتَوَلَّىٰ ﴿٤٨﴾ ﴾ [طه]

وفى سورة الشعراء :

﴿ قَالَ رَبِّ إِنِّي أَخَافُ أَن يُكَذِّبُونِ ﴿١٢﴾ وَيَضِيقُ صَدْرِي وَلا يَنطَلِقُ لِسَانِي فَأَرْسِلْ إِلَىٰ هَرُونَ ﴿١٣﴾ وَلَهُمْ عَلَيَّ ذَنبٌ فَأَخَافُ أَن يَقْتُلُونِ ﴿١٤﴾ قَالَ

كَلاَّ فَاذْهَبَا بِآيَاتِنَا إِنَّا مَعَكُم مُّسْتَمِعُونَ (١٥) فَأْتِيَا فِرْعَوْنَ فَقُولا إِنَّا رَسُولُ رَبِّ الْعَالَمِينَ (١٦) أَنْ أَرْسِلْ مَعَنَا بَنِي إِسْرَائِيلَ (١٧) ﴾ [الشعراء]

وفى سورة القصص :

﴿ قَالَ رَبِّ إِنِّي قَتَلْتُ مِنْهُمْ نَفْسًا فَأَخَافُ أَن يَقْتُلُونِ (٣٣) وَأَخِي هَرُونُ هُوَ أَفْصَحُ مِنِّي لِسَانًا فَأَرْسِلْهُ مَعِيَ رِدْءًا يُصَدِّقُنِي إِنِّي أَخَافُ أَن يُكَذِّبُونِ (٣٤) قَالَ سَنَشُدُّ عَضُدَكَ بِأَخِيكَ وَنَجْعَلُ لَكُمَا سُلْطَانًا فَلا يَصِلُونَ إِلَيْكُمَا بِآيَاتِنَا أَنتُمَا وَمَنِ اتَّبَعَكُمَا الْغَالِبُونَ (٣٥) ﴾ [القصص]

والردء : المعين ، والسلطان : الحجة والبرهان والحصانة الإلهية.

وقد أمدهما بهما بالآيات المقنعة والبراهين الساطعة وتكفل بحفظهما فصدعا بأمر الله تعالى وأبلغا رسالته إلى فرعون وملأه.

قصة عجل بنى إسرائيل

فى قصر فرعون:

لما انتهى موسى -عليه السلام- إلى مصر بعد مناجاة ربه صحب أخاه هارون إلى قصر فرعون. وعرض عليه الدعوة وطلب منه أن يرسل معه بنى إسرائيل فيطلقهم من الأسر والعبودية، ولا يعذبهم بالاذلال والتسخير، وذكره بعذاب الله تعالى إن هو استمر فى غيه وإدعائه للآلوهية، وحكم الناس بالظلم والجبروت.

وهنا أدرك فرعون أنه أمام الرجل الذى كان يخشاه على نفسه وملكه من قبل وأمام الرجل الذى كان يتمنى ألا يخلق، وألا يجئ اليوم الذى يأتى إليه فى عقر داره وفى ديوان حكمه ليعرض عليه ما لم يعرضه عليه آحد قبله.

ومن هو هذا الرجل ؟ إنه الوليد الذى رباه، ثم فر من وجهه بغضا له واستنكارا لظلمه، فلما سمع مقالته أراد أن يثنيه عن دعوته قبل أن يعلن بها الناس ﴿ قَالَ أَلَمْ نُرَبِّكَ فِينَا وَلِيدًا وَلَبِثْتَ فِينَا مِنْ عُمُرِكَ سِنِينَ (١٨) وَفَعَلْتَ فَعْلَتَكَ الَّتِي فَعَلْتَ وَأَنتَ مِنَ الْكَافِرِينَ (١٩) ﴾ [الشعراء]

لكن موسى عليه السلام لم يهتم لهذا التهديد، واعتذر إنه كان ضالا، أى حائرا- لا يعرف ماذا يفعل لتخليص الإسرائيلى من يد المصرى ، فاضطر إلى وكزه (ضربه) وما كان يعرف أن هذه الوكزه تقضى عليه، واعتذر عن فراره من مصر لما علم بائتمارهم على قتله.

وكأن فرعون يريد أن يقول له : من أين جاءه هذا العلم، وكيف عرفت أن لك ربا غيرى، ومتى أرسلك إلهك، وكيف يختار الإله رجلا طريدا ينكر نعمة من رباه وأحسن إليه؟

﴿ قَالَ فَعَلْتُهَا إِذًا وَأَنَا مِنَ الضَّالِّينَ (٢٠) فَفَرَرْتُ مِنكُمْ لَمَّا خِفْتُكُمْ فَوَهَبَ لِي رَبِّي حُكْمًا وَجَعَلَنِي مِنَ الْمُرْسَلِينَ (٢١) وَتِلْكَ نِعْمَةٌ تَمُنُّهَا عَلَيَّ أَنْ عَبَّدتَّ بَنِي إِسْرَائِيلَ (٢٢) ﴾ [الشعراء]

فكان موسى -عليه السلام- يلمح لفرعون بأنه إذا كان يطالب بدم رجل واحد من شيعته فكيف بدم آلاف قتلهم فرعون وكيف باستعباده أمة بأسرها وتسخيرها وظلمها.

وبعد هذا الحوار الهادئ المقنع بدا فرعون يسأل عن رب العالمين سؤال المتجاهل. فمعرفة الله تعالى فطرية لا تقبل الإنكار.

﴿ قَالَ فِرْعَوْنُ وَمَا رَبُّ الْعَالَمِينَ (٢٣) ﴾ [الشعراء]

فيجيبه موسى : ﴿ قَالَ رَبُّ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا إِن كُنتُم مُّوقِنِينَ (٢٤) ﴾ [الشعراء]

ويظهر فرعون تعجبه من هذا الجواب ويثير عجب من حوله ﴿ قَالَ لِمَنْ حَوْلَهُ أَلا تَسْتَمِعُونَ (٢٥) ﴾ [الشعراء]

فيبادرهم موسى قبل أن يشير أحدهم بقتله تملقا لفرعون وخوفا على مصالحهم الدنيوية. قال : ﴿ قَالَ رَبُّكُمْ وَرَبُّ آبَائِكُمُ الأَوَّلِينَ (٢٦) ﴾ [الشعراء]

فلما سمع فرعون مقالة موسى لمن حوله خشى أن يقع في نفوس السادة والأشراف شئ من تعظيم موسى والميل لما يقوله فقال على الفور ما قاله من سبقه من الكافرين: ﴿ قَالَ إِنَّ رَسُولَكُمُ الَّذِي أُرْسِلَ إِلَيْكُمْ لَمَجْنُونٌ (٢٧) ﴾ [الشعراء]

فرد موسى : ﴿ قَالَ رَبُّ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ وَمَا بَيْنَهُمَا إِن كُنتُمْ تَعْقِلُونَ (٢٨) ﴾ [الشعراء]

وفى قوله إن كنتم تعقلون تعريض بمن اتهمه منهم بالجنون. فاشتد غضب فرعون ، فيتهدد ويتوعد. ﴿ قَالَ لَئِنِ اتَّخَذْتَ إِلَهًا غَيْرِي لأَجْعَلَنَّكَ مِنَ الْمَسْجُونِينَ (٢٩) ﴾ [الشعراء]

فعرض موسى عليه السلام برهانا ناصعا على صدق دعوته: ﴿ قَالَ أَوَ لَوْ جِئْتُكَ بِشَيْءٍ مُّبِينٍ (٣٠) قَالَ فَأْتِ بِهِ إِن كُنتَ مِنَ الصَّادِقِينَ (٣١) ﴾ [الشعراء]

قال تعالى : ﴿ فَأَلْقَىٰ عَصَاهُ فَإِذَا هِيَ ثُعْبَانٌ مُّبِينٌ (٣٢) وَنَزَعَ يَدَهُ فَإِذَا هِيَ بَيْضَاءُ لِلنَّاظِرِينَ (٣٣) ﴾ [الشعراء]

فلما رأى فرعون هاتين المعجزتين سُقط فى يده، وأحس بالخيبة والخذلان ففكر أن هؤلاء القوم يحبون أرضهم فلو خوفهم من الخروج منها على يد موسى لمالت نفوسهم إلى تكذيبها حرصا على أرضهم وأموالهم فقال : ﴿ قَالَ لِلْمَلإِ حَوْلَهُ إِنَّ هَذَا لَسَاحِرٌ عَلِيمٌ (٣٤) يُرِيدُ أَن يُخْرِجَكُم مِّنْ أَرْضِكُم بِسِحْرِهِ فَمَاذَا تَأْمُرُونَ (٣٥) ﴾ [الشعراء]

﴿ قَالُوا أَرْجِهْ وَأَخَاهُ وَابْعَثْ فِي الْمَدَائِنِ حَاشِرِينَ (٣٦) يَأْتُوكَ بِكُلِّ سَحَّارٍ عَلِيمٍ (٣٧) ﴾ [الشعراء]

وفى سورة طه : ﴿ قَالَ أَجِئْتَنَا لِتُخْرِجَنَا مِنْ أَرْضِنَا بِسِحْرِكَ يَا مُوسَىٰ (٥٧) فَلَنَأْتِيَنَّكَ بِسِحْرٍ مِّثْلِهِ فَاجْعَلْ بَيْنَنَا وَبَيْنَكَ مَوْعِدًا لَّا نُخْلِفُهُ نَحْنُ وَلَا أَنتَ مَكَانًا سُوًى (٥٨) قَالَ مَوْعِدُكُمْ يَوْمُ الزِّينَةِ وَأَن يُحْشَرَ النَّاسُ ضُحًى (٥٩) ﴾ [طه]

فوجدها موسى -عليه السلام- فرصة ليعرض دعوته أمام الحشود الغفيرة بما فيهم السحرة وأدعياء العلم بدلا من السعى إليهم فى البلاد.

وبعد أن تودد فرعون إلي حاشيته أخذ يتودد إلي السحرة ويعدهم بالمنح والمكافآت السخية والمناصب العليا والتقرب منه ، خشية أن ينتصر موسى عليه وعليهم.

موسى -عليه السلام- فى مواجهة السحرة:

اجتمع أفراد الشعب المصرى فى ساحة المنازلة وجمع فرعون السحرة من مختلف أنحاء البلاد ووقف السحرة أمام موسى وقالوا له تلقى أنت أم نلقى نحن أولا. فقال لهم موسى ألقوا أنتم أولا فألقوا حبالهم وعصيهم فخيل لموسى أنها تسعى فى صور حيات مخيفة وحشرات بشعة، وحيوانات مفترسة، ووقع فى الناس رعب عظيم، وخاف موسى أن يُكذب فى دعوته، فطمأنه ربه بأن الغلبة له وأنه هو الأعلى وأن ما يصنعون إن هو إلا حيل وألاعيب وتخييل وتأثير على العيون والنفوس بمكائد السحر وفنونه.

ولما رأى فرعون إيمان السحرة بموسى بعد ظهور الحق واندحار باطلهم ورؤيتهم لعصا موسى وقد تحولت إلى ثعبان هائل ابتلع عصيهم وحبالهم وهم لا تسحر عيونهم كما يسحرون هم أعين الناس. لما رأى فرعون ذلك ثارت ثائرته، وافقده الغضب رشده، فهدد السحرة بصلبهم فى جذوع النخل بحجة إيمانهم بموسى دون إذن منه فاستهانوا. بعذاب الدنيا فى سبيل النجاة من عذاب الآخرة ، ورغبة فى غفران سيئاتهم وما أجبرهم عليه فرعون من السحر والشر والإيذاء والضلال.

يقول تعالى :

﴿ قَالَ آمَنتُمْ لَهُ قَبْلَ أَنْ آذَنَ لَكُمْ إِنَّهُ لَكَبِيرُكُمُ الَّذِي عَلَّمَكُمُ السِّحْرَ فَلَأُقَطِّعَنَّ أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُم مِّنْ خِلَافٍ وَلَأُصَلِّبَنَّكُمْ فِي جُذُوعِ النَّخْلِ وَلَتَعْلَمُنَّ أَيُّنَا أَشَدُّ عَذَابًا وَأَبْقَىٰ (٧١) قَالُوا لَن نُّؤْثِرَكَ عَلَىٰ مَا جَاءَنَا مِنَ الْبَيِّنَاتِ وَالَّذِي فَطَرَنَا فَاقْضِ مَا أَنتَ قَاضٍ إِنَّمَا تَقْضِي هَٰذِهِ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا (٧٢) إِنَّا آمَنَّا بِرَبِّنَا لِيَغْفِرَ لَنَا خَطَايَانَا وَمَا أَكْرَهْتَنَا عَلَيْهِ مِنَ السِّحْرِ وَاللَّهُ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰ (٧٣) إِنَّهُ مَن يَأْتِ رَبَّهُ مُجْرِمًا فَإِنَّ لَهُ جَهَنَّمَ لَا يَمُوتُ فِيهَا وَلَا يَحْيَىٰ (٧٤) وَمَن يَأْتِهِ مُؤْمِنًا قَدْ عَمِلَ الصَّالِحَاتِ فَأُولَٰئِكَ لَهُمُ الدَّرَجَاتُ الْعُلَىٰ (٧٥) جَنَّاتُ عَدْنٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَذَٰلِكَ جَزَاءُ مَن تَزَكَّىٰ (٧٦) ﴾ [طه]

وقال تعالى :

﴿ قَالَ فِرْعَوْنُ آمَنتُم بِهِ قَبْلَ أَنْ آذَنَ لَكُمْ إِنَّ هَٰذَا لَمَكْرٌ مَّكَرْتُمُوهُ فِي

قال تعالى :

﴿ فَتَوَلَّىٰ فِرْعَوْنُ فَجَمَعَ كَيْدَهُ ثُمَّ أَتَىٰ (٦٠) قَالَ لَهُم مُّوسَىٰ وَيْلَكُمْ لَا تَفْتَرُوا عَلَى اللَّهِ كَذِبًا فَيُسْحِتَكُم بِعَذَابٍ وَقَدْ خَابَ مَنِ افْتَرَىٰ (٦١) فَتَنَازَعُوا أَمْرَهُم بَيْنَهُمْ وَأَسَرُّوا النَّجْوَىٰ (٦٢) قَالُوا إِنْ هَٰذَانِ لَسَاحِرَانِ يُرِيدَانِ أَن يُخْرِجَاكُم مِّنْ أَرْضِكُم بِسِحْرِهِمَا وَيَذْهَبَا بِطَرِيقَتِكُمُ الْمُثْلَىٰ (٦٣) فَأَجْمِعُوا كَيْدَكُمْ ثُمَّ ائْتُوا صَفًّا وَقَدْ أَفْلَحَ الْيَوْمَ مَنِ اسْتَعْلَىٰ (٦٤) قَالُوا يَا مُوسَىٰ إِمَّا أَن تُلْقِيَ وَإِمَّا أَن نَّكُونَ أَوَّلَ مَنْ أَلْقَىٰ (٦٥) قَالَ بَلْ أَلْقُوا فَإِذَا حِبَالُهُمْ وَعِصِيُّهُمْ يُخَيَّلُ إِلَيْهِ مِن سِحْرِهِمْ أَنَّهَا تَسْعَىٰ (٦٦) فَأَوْجَسَ فِي نَفْسِهِ خِيفَةً مُّوسَىٰ (٦٧) قُلْنَا لَا تَخَفْ إِنَّكَ أَنتَ الْأَعْلَىٰ (٦٨) وَأَلْقِ مَا فِي يَمِينِكَ تَلْقَفْ مَا صَنَعُوا إِنَّمَا صَنَعُوا كَيْدُ سَاحِرٍ وَلَا يُفْلِحُ السَّاحِرُ حَيْثُ أَتَىٰ (٦٩) فَأُلْقِيَ السَّحَرَةُ سُجَّدًا قَالُوا آمَنَّا بِرَبِّ هَارُونَ وَمُوسَىٰ (٧٠) ﴾ [طه]

وقال تعالى :

﴿ فَجُمِعَ السَّحَرَةُ لِمِيقَاتِ يَوْمٍ مَّعْلُومٍ (٣٨) وَقِيلَ لِلنَّاسِ هَلْ أَنتُم مُّجْتَمِعُونَ (٣٩) لَعَلَّنَا نَتَّبِعُ السَّحَرَةَ إِن كَانُوا هُمُ الْغَالِبِينَ (٤٠) فَلَمَّا جَاءَ السَّحَرَةُ قَالُوا لِفِرْعَوْنَ أَئِنَّ لَنَا لَأَجْرًا إِن كُنَّا نَحْنُ الْغَالِبِينَ (٤١) قَالَ نَعَمْ وَإِنَّكُمْ إِذًا لَّمِنَ الْمُقَرَّبِينَ (٤٢) قَالَ لَهُم مُّوسَىٰ أَلْقُوا مَا أَنتُم مُّلْقُونَ (٤٣) فَأَلْقَوْا حِبَالَهُمْ وَعِصِيَّهُمْ وَقَالُوا بِعِزَّةِ فِرْعَوْنَ إِنَّا لَنَحْنُ الْغَالِبُونَ (٤٤) فَأَلْقَىٰ مُوسَىٰ عَصَاهُ فَإِذَا هِيَ تَلْقَفُ مَا يَأْفِكُونَ (٤٥) فَأُلْقِيَ السَّحَرَةُ سَاجِدِينَ (٤٦) قَالُوا آمَنَّا بِرَبِّ الْعَالَمِينَ (٤٧) رَبِّ مُوسَىٰ وَهَارُونَ (٤٨) ﴾ [الشعراء]

الْمَدِينَةِ لِتُخْرِجُوا مِنْهَا أَهْلَهَا فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ (١٢٣) لأُقَطِّعَنَّ أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُم مِّنْ خِلافٍ ثُمَّ لأُصَلِّبَنَّكُمْ أَجْمَعِينَ (١٢٤) قَالُوا إِنَّا إِلَىٰ رَبِّنَا مُنقَلِبُونَ (١٢٥) وَمَا تَنقِمُ مِنَّا إِلاَّ أَنْ آمَنَّا بِآيَاتِ رَبِّنَا لَمَّا جَاءَتْنَا رَبَّنَا أَفْرِغْ عَلَيْنَا صَبْرًا وَتَوَفَّنَا مُسْلِمِينَ (١٢٦) ﴾ [الأعراف]

وقال تعالى : ﴿ قَالُوا لا ضَيْرَ إِنَّا إِلَىٰ رَبِّنَا مُنقَلِبُونَ (٥٠) إِنَّا نَطْمَعُ أَن يَغْفِرَ لَنَا رَبُّنَا خَطَايَانَا أَن كُنَّا أَوَّلَ الْمُؤْمِنِينَ (٥١) ﴾ [الشعراء]

أى لا ضيم ولا خسران علينا إذا ذهب من بين أيدينا كل شئ ولو كانت حياتنا وسلم لنا إيمانا، فنستقبل حياة هى أعز وأكرم وأفضل، أنها حياتنا الأخرى وهى خير وأبقى.

فرعون بعد إيمان السحرة:

اشتد إيذاء فرعون لبنى إسرائيل وأصر على كفره، فسلط الله عليه وعلى قومه عذابا من عنده. قال تعالى :

﴿ وَلَقَدْ أَخَذْنَا آلَ فِرْعَوْنَ بِالسِّنِينَ وَنَقْصٍ مِّنَ الثَّمَرَاتِ لَعَلَّهُمْ يَذَّكَّرُونَ (١٣٠) فَإِذَا جَاءَتْهُمُ الْحَسَنَةُ قَالُوا لَنَا هَٰذِهِ وَإِن تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ يَطَّيَّرُوا بِمُوسَىٰ وَمَن مَّعَهُ أَلا إِنَّمَا طَائِرُهُمْ عِندَ اللَّهِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لا يَعْلَمُونَ (١٣١) وَقَالُوا مَهْمَا تَأْتِنَا بِهِ مِنْ آيَةٍ لِّتَسْحَرَنَا بِهَا فَمَا نَحْنُ لَكَ بِمُؤْمِنِينَ (١٣٢) فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ الطُّوفَانَ وَالْجَرَادَ وَالْقُمَّلَ وَالضَّفَادِعَ وَالدَّمَ آيَاتٍ مُّفَصَّلاتٍ فَاسْتَكْبَرُوا وَكَانُوا قَوْمًا مُّجْرِمِينَ (١٣٣) ﴾ [الأعراف]

وكان فرعون كلما نزلت به نازلة، طالب من موسى أيدعوا إلهه ليرفع هذا البلاء، ويعده أنه لو آجابه وفرج عنه كربه يؤمن به ويرسل معه بنى إسرائيل، فيذهب بهم حيث يشاء وهم آمنون.

ولكن ما إن يرفع البلاء حتى يعود فرعون إلى سيرته الأولى.

يقول تعالى :

﴿ فلما كشفنا عنهم الرجز إلى أجل هم بالغوه إذا هم ينكثون ﴾ والرجز هو العذاب، والنكث خلف الوعد.

ويشتد البلاء على بنى إسرائيل فيشكون لموسى عليه السلام بتوجيهم بالصبر الجميل ويعدهم خيرا ﴿ قَالُوا أُوذِينَا مِن قَبْلِ أَن تَأْتِيَنَا وَمِن بَعْدِ مَا جِئْتَنَا قَالَ عَسَىٰ رَبُّكُمْ أَن يُهْلِكَ عَدُوَّكُمْ وَيَسْتَخْلِفَكُمْ فِي الْأَرْضِ فَيَنظُرَ كَيْفَ تَعْمَلُونَ (١٢٩) ﴾ [الأعراف]

المطاردة وهلاك فرعون وجنوده:

انكر فرعون وقومه هذه الآيات البينات المفصلات قست قلوبهم فلا ينفعها وعظ ولا زجر، ولا يردها عن غيها بلاء فكان لابد من الانتقام منهم وإهلاكهم.

وظل بنوا إسرائيل يعانون بطش فرعون حتى فقدوا الصبر وملوا الحياة فأوصى الله تعالى إلى موسى أن يخرج من هذه الأرض التى أفسدها الفراعنة بطغيانهم فعلم فرعون بخروجهم ليلا، فجمع جموعه من أجل اللحاق بهم والقضاء عليهم فأخرجهم الله تعالى من النعيم إلى الهلاك.

يقول تعالى :

﴿ وَأَوْحَيْنَا إِلَىٰ مُوسَىٰ أَنْ أَسْرِ بِعِبَادِي إِنَّكُم مُّتَّبَعُونَ (٥٢) فَأَرْسَلَ فِرْعَوْنُ فِي الْمَدَائِنِ حَاشِرِينَ (٥٣) إِنَّ هَٰؤُلَاءِ لَشِرْذِمَةٌ قَلِيلُونَ (٥٤) وَإِنَّهُمْ لَنَا لَغَائِظُونَ (٥٥) وَإِنَّا لَجَمِيعٌ حَاذِرُونَ (٥٦) فَأَخْرَجْنَاهُم مِّن جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ (٥٧) وَكُنُوزٍ وَمَقَامٍ كَرِيمٍ (٥٨) كَذَٰلِكَ وَأَوْرَثْنَاهَا بَنِي إِسْرَائِيلَ (٥٩) فَأَتْبَعُوهُم مُّشْرِقِينَ (٦٠) فَلَمَّا تَرَاءَى الْجَمْعَانِ قَالَ أَصْحَابُ مُوسَىٰ إِنَّا لَمُدْرَكُونَ (٦١) قَالَ كَلَّا إِنَّ مَعِيَ رَبِّي سَيَهْدِينِ (٦٢) فَأَوْحَيْنَا إِلَىٰ مُوسَىٰ أَنِ اضْرِب بِّعَصَاكَ الْبَحْرَ فَانفَلَقَ فَكَانَ كُلُّ فِرْقٍ كَالطَّوْدِ الْعَظِيمِ (٦٣) وَأَزْلَفْنَا ثَمَّ الْآخَرِينَ (٦٤) وَأَنجَيْنَا مُوسَىٰ وَمَن مَّعَهُ أَجْمَعِينَ (٦٥) ثُمَّ أَغْرَقْنَا الْآخَرِينَ (٦٦) إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ (٦٧) وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ (٦٨) ﴾ [الشعراء]

ويقول تعالى :

﴿ فَأَسْرِ بِعِبَادِي لَيْلًا إِنَّكُم مُّتَّبَعُونَ (٢٣) وَاتْرُكِ الْبَحْرَ رَهْوًا إِنَّهُمْ جُندٌ مُّغْرَقُونَ (٢٤) كَمْ تَرَكُوا مِن جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ (٢٥) وَزُرُوعٍ وَمَقَامٍ كَرِيمٍ (٢٦) وَنَعْمَةٍ كَانُوا فِيهَا فَاكِهِينَ (٢٧) كَذَٰلِكَ وَأَوْرَثْنَاهَا قَوْمًا آخَرِينَ (٢٨) فَمَا بَكَتْ عَلَيْهِمُ السَّمَاءُ وَالْأَرْضُ وَمَا كَانُوا مُنظَرِينَ (٢٩) وَلَقَدْ نَجَّيْنَا بَنِي إِسْرَائِيلَ مِنَ الْعَذَابِ الْمُهِينِ (٣٠) مِن فِرْعَوْنَ إِنَّهُ كَانَ عَالِيًا مِّنَ الْمُسْرِفِينَ (٣١) ﴾ [الدخان]

وقوله تعالى : رهوا أي ساكنا على حاله.

وقال تعالى :

﴿ وَجَاوَزْنَا بِبَنِي إِسْرَائِيلَ الْبَحْرَ فَأَتْبَعَهُمْ فِرْعَوْنُ وَجُنُودُهُ بَغْيًا وَعَدْوًا حَتَّىٰ إِذَا أَدْرَكَهُ الْغَرَقُ قَالَ آمَنتُ أَنَّهُ لا إِلَهَ إِلاَّ الَّذِي آمَنَتْ بِهِ بَنُو إِسْرَائِيلَ وَأَنَا مِنَ الْمُسْلِمِينَ (٩٠) آلآنَ وَقَدْ عَصَيْتَ قَبْلُ وَكُنتَ مِنَ الْمُفْسِدِينَ (٩١) فَالْيَوْمَ نُنَجِّيكَ بِبَدَنِكَ لِتَكُونَ لِمَنْ خَلْفَكَ آيَةً وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ النَّاسِ عَنْ آيَاتِنَا لَغَافِلُونَ (٩٢) ﴾ [يونس]

"ننجيك" أى نجعل بدنك فوق ربوة عالية ليشهدها الناس ويتأكدوا من موته لتكون عبرة لمن يعتبر".

سؤالهم عبادة الأصنام:

وبينما كان بنو إسرائيل فى طريقهم إلى سيناء - بعد مجاوزتهم البحر الأحمر وجدوا قوما يعكفون على أصنام يعبدونها من دون الله، فطلبوا من موسى عليه السلام أن ينصت لهم صنما مثل أصنامهم، يجعلونه واسطة بينهم وبين الله كما يفعل هؤلاء القوم، فغضب موسى عليه السلام، ووصفهم بالجهل والحمق وكفران النعم، ومن أعظمها نعمة الله، النجاة من فرعون وآله وقد كان المصريون يعبدون ما يسمى بعجل أبيس كما هو ثابت من آثارهم وكانوا يعبدون القطط والكلاب والثعابين والشمس والقمر من دون الله. والعجب من هؤلاء الإسرائيليين الذين يطلبون عبادة أصنام من دون الله وأقدامهم لم تكد تجف من ماء البحر الذى أغرق الله فيه أعداءهم من الفراعنة.

قال تعالى :

﴿ وَجَاوَزْنَا بِبَنِي إِسْرَائِيلَ الْبَحْرَ فَأَتَوْا عَلَىٰ قَوْمٍ يَعْكُفُونَ عَلَىٰ أَصْنَامٍ لَّهُمْ قَالُوا يَا مُوسَى اجْعَل لَّنَا إِلَٰهًا كَمَا لَهُمْ آلِهَةٌ قَالَ إِنَّكُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ (١٣٨) إِنَّ هَٰؤُلَاءِ مُتَبَّرٌ مَّا هُمْ فِيهِ وَبَاطِلٌ مَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ (١٣٩) قَالَ أَغَيْرَ اللَّهِ أَبْغِيكُمْ إِلَٰهًا وَهُوَ فَضَّلَكُمْ عَلَى الْعَالَمِينَ (١٤٠) وَإِذْ أَنجَيْنَاكُم مِّنْ آلِ فِرْعَوْنَ يَسُومُونَكُمْ سُوءَ الْعَذَابِ يُقَتِّلُونَ أَبْنَاءَكُمْ وَيَسْتَحْيُونَ نِسَاءَكُمْ وَفِي ذَٰلِكُم بَلَاءٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَظِيمٌ (١٤١) ﴾ [الأعراف]

رفضهم دخول بيت المقدس وعقابهم بالتيه:

أمر موسى عليه السلام قومه بدخول الأرض المقدسة التى كتبها الله لهم. وما أخرجهم من مصر إلا من أجل أن يدخلوها سجدا له - سبحانه- طالبين منه أن يحط عنهم ذنوبهم، ويغفر خطاياهم.

وقد ذكرهم موسى بنعم الله تعالى عليهم قبل أن يأمرهم بالدخول. لشحذ عزائمهم واستنهاض هممهم، وبعث كوامن الرغبة فيما أعده الله لهم من جنات وعيون، وزروع ومقام كريم، وليقيموا دين الله ويطردوا العماليق المشركين.

ولكن القوم جنبوا ورفضوا فى إصرار. فقد جبلوا على الدعة والكسل، والجبن والخور (الضعف). وقالوا لا طاقة لنا بقتالهم فإن يخرجوا فإنا داخلون. وقد نصح لهم رجلان منهم هما يوشع بن نون غلام موسى، وكالب بن يوقنا وقد أنعم الله عليهما بالعلم والحكمة، والذكاء والفطنة ،

والعزم والحزم وقوة الإيمان واليقين، والجرأة والشجاعة والصبر.

يقول تعالى:

﴿ وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِ يَا قَوْمِ اذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ جَعَلَ فِيكُمْ أَنبِيَاءَ وَجَعَلَكُم مُّلُوكًا وَآتَاكُم مَّا لَمْ يُؤْتِ أَحَدًا مِّنَ الْعَالَمِينَ (٢٠) يَا قَوْمِ ادْخُلُوا الأَرْضَ الْمُقَدَّسَةَ الَّتِي كَتَبَ اللَّهُ لَكُمْ وَلا تَرْتَدُّوا عَلَىٰ أَدْبَارِكُمْ فَتَنقَلِبُوا خَاسِرِينَ (٢١) قَالُوا يَا مُوسَىٰ إِنَّ فِيهَا قَوْمًا جَبَّارِينَ وَإِنَّا لَن نَّدْخُلَهَا حَتَّىٰ يَخْرُجُوا مِنْهَا فَإِن يَخْرُجُوا مِنْهَا فَإِنَّا دَاخِلُونَ (٢٢) قَالَ رَجُلانِ مِنَ الَّذِينَ يَخَافُونَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِمَا ادْخُلُوا عَلَيْهِمُ الْبَابَ فَإِذَا دَخَلْتُمُوهُ فَإِنَّكُمْ غَالِبُونَ وَعَلَى اللَّهِ فَتَوَكَّلُوا إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ (٢٣) قَالُوا يَا مُوسَىٰ إِنَّا لَن نَّدْخُلَهَا أَبَدًا مَّا دَامُوا فِيهَا فَاذْهَبْ أَنتَ وَرَبُّكَ فَقَاتِلا إِنَّا هَاهُنَا قَاعِدُونَ (٢٤) قَالَ رَبِّ إِنِّي لا أَمْلِكُ إِلاَّ نَفْسِي وَأَخِي فَافْرُقْ بَيْنَنَا وَبَيْنَ الْقَوْمِ الْفَاسِقِينَ (٢٥) قَالَ فَإِنَّهَا مُحَرَّمَةٌ عَلَيْهِمْ أَرْبَعِينَ سَنَةً يَتِيهُونَ فِي الأَرْضِ فَلا تَأْسَ عَلَى الْقَوْمِ الْفَاسِقِينَ (٢٦) ﴾ [المائدة]

ولم يدخلوها إلى بعد وفاة موسى ودخلوا على يد نبى الله يوشع بن نون.

عبادتهم العجل :

جعل الله تعالى موسى عليه السلام ميقاتا يكلمه فيه، وواعده ثلاثين يوما يقوم فيها بعيدا عن قومه، وزادها عشرا فتم ميقات ربه أربعين ليلة.

وقد وصى موسى أخاه هارون أن يخلفه فى قومه بخير، فيحكم بينهم بالعدل ويصلح ذات بينهم ويقيم لهم شعائر الدين ولا يتبع سبيل (طريق) المفسدين وذهب موسى لميقات ربه، فلما كلمه طلب منه أن يراه، فأخبره أن هذا أمر لايمكن منه، وأحاله للنظر إلى الجبل فدُك الجبل بتجلى الله تعالى عليه وخر موسى صعقا، ثم يفيق موسى من صعقته مسبحا لله تائبا إليه. قال أنه أول المؤمنين بجلاله وكماله وعظمته ووحدانيته.

فعذره ربه لعلمه أنه ما طلب أن يراه إلا لفرط (لشدة) حبه له، واستعذابه لمناجاته، فأراد أن يضم إلى السماع الرؤية.

قال تعالى:

﴿ وَوَاعَدْنَا مُوسَىٰ ثَلَاثِينَ لَيْلَةً وَأَتْمَمْنَاهَا بِعَشْرٍ فَتَمَّ مِيقَاتُ رَبِّهِ أَرْبَعِينَ لَيْلَةً وَقَالَ مُوسَىٰ لِأَخِيهِ هَارُونَ اخْلُفْنِي فِي قَوْمِي وَأَصْلِحْ وَلَا تَتَّبِعْ سَبِيلَ الْمُفْسِدِينَ (١٤٢) وَلَمَّا جَاءَ مُوسَىٰ لِمِيقَاتِنَا وَكَلَّمَهُ رَبُّهُ قَالَ رَبِّ أَرِنِي أَنظُرْ إِلَيْكَ قَالَ لَن تَرَانِي وَلَٰكِنِ انظُرْ إِلَى الْجَبَلِ فَإِنِ اسْتَقَرَّ مَكَانَهُ فَسَوْفَ تَرَانِي فَلَمَّا تَجَلَّىٰ رَبُّهُ لِلْجَبَلِ جَعَلَهُ دَكًّا وَخَرَّ مُوسَىٰ صَعِقًا فَلَمَّا أَفَاقَ قَالَ سُبْحَانَكَ تُبْتُ إِلَيْكَ وَأَنَا أَوَّلُ الْمُؤْمِنِينَ (١٤٣) قَالَ يَا مُوسَىٰ إِنِّي اصْطَفَيْتُكَ عَلَى النَّاسِ بِرِسَالَاتِي وَبِكَلَامِي فَخُذْ مَا آتَيْتُكَ وَكُن مِّنَ الشَّاكِرِينَ (١٤٤) ﴾ [الأعراف]

وفى الوقت الذى كان موسى عليه السلام يناجى ربه سبحانه وتعالى فوق جبل الطور- عبد قومه عجلا صنعه لهم رجل ضال اسمه السامرى حيث صنعه لهم من الذهب الذى حملوه معهم من مصر، وقد قال لهم

السامرى وأتباعه الضالون: هذا إلهكم وإله موسى نسيه هنا وذهب يبحث عنه على جبل الطور، ولهذا تأخر عن الموعد الذى ضربه لكم ففرحوا برؤيته ورقصوا حوله وعظموه، وطافوا به وكبروا له، وخالط حبه قلوبهم كما قال تعالى ﴿ وأشربوا في قلوبهم العجل بكفرهم ﴾.

ونهاهم هارون عن ذلك الشرك والضلال فنهروه واستضعفوه وكادوا يقتلونه. ولم يشأ هارون أن يشعل فيهم نار حرب أهلية حتى يرجع موسى عليه السلام ويرى فيهم رأيه.

وأخبر الله تعالى نبيه موسى أن قومه قد فتنوا من بعده، وأضلهم السامرى، فرجع موسى إلى قومه غضبان اسفا(حزينا).

قال تعالى :

﴿ وَمَا أَعْجَلَكَ عَن قَوْمِكَ يَا مُوسَىٰ (٨٣) قَالَ هُمْ أُولاءِ عَلَىٰ أَثَرِي وَعَجِلْتُ إِلَيْكَ رَبِّ لِتَرْضَىٰ (٨٤) قَالَ فَإِنَّا قَدْ فَتَنَّا قَوْمَكَ مِنْ بَعْدِكَ وَأَضَلَّهُمُ السَّامِرِيُّ (٨٥) فَرَجَعَ مُوسَىٰ إِلَىٰ قَوْمِهِ غَضْبَانَ أَسِفًا قَالَ يَا قَوْمِ أَلَمْ يَعِدْكُمْ رَبُّكُمْ وَعْدًا حَسَنًا أَفَطَالَ عَلَيْكُمُ الْعَهْدُ أَمْ أَرَدتُّمْ أَن يَحِلَّ عَلَيْكُمْ غَضَبٌ مِّن رَّبِّكُمْ فَأَخْلَفْتُم مَّوْعِدِي (٨٦) قَالُوا مَا أَخْلَفْنَا مَوْعِدَكَ بِمَلْكِنَا وَلَكِنَّا حُمِّلْنَا أَوْزَارًا مِّن زِينَةِ الْقَوْمِ فَقَذَفْنَاهَا فَكَذَلِكَ أَلْقَى السَّامِرِيُّ (٨٧) فَأَخْرَجَ لَهُمْ عِجْلاً جَسَدًا لَّهُ خُوَارٌ فَقَالُوا هَذَا إِلَهُكُمْ وَإِلَهُ مُوسَىٰ فَنَسِيَ (٨٨) أَفَلا يَرَوْنَ أَلاَّ يَرْجِعُ إِلَيْهِمْ قَوْلاً وَلا يَمْلِكُ لَهُمْ ضَرًّا وَلا نَفْعًا (٨٩) ﴾ [طه]

كان موسى عليه السلام قد أمر قومه أن يسيروا إلى جانب الطور

على أن يعود إليهم بعد ثلاثين ليلة، فعاتبه ربه أنه سبقهم وتركهم، وكان موسى مجتهدا ورأى أن هارون فيهم يقوم على أمرهم.

واعتذر القوم لموسى بأنهم كانوا يحملون أوزاراً ثقيلة من زينة أهل مصر، وقد ندموا على حملها، وأشار عليهم السامرى بوضعها فى حفرة حتى إذا رجع وأشار من الميقات بين لهم حكم الله فيها. وما أخلفنا موعدك برغبتنا. ولكن بعض القوم حملونا قهرا على إلقاء ما معنا من الزينة الذهبية فى حفرة ففعلنا.

وقد وضع السامرى ترابا من تحت أقدام فرس جبريل عليه السلام فقد كان جبريل يربيه ويحنوا عليه ولذلك قالوا إن موسى الذى رباه فرعون صار نبيا وموسى الذي رباه جبريل صار كافرا والهداية من الله تبارك وتعالى.

وقد أعجب القوم بالعجل الذى كان له صوت يشبه خوار العجول الحية، وهم قد عرفوا الوثنية، وعايشوها زمنا، وكانت لا تزال قلوبهم متعلقة بها من تأثير الفراعنة عليهم.

قال تعالى:

﴿ وَلَقَدْ قَالَ لَهُمْ هَارُونُ مِن قَبْلُ يَا قَوْمِ إِنَّمَا فُتِنتُم بِهِ وَإِنَّ رَبَّكُمُ الرَّحْمَٰنُ فَاتَّبِعُونِي وَأَطِيعُوا أَمْرِي (٩٠) قَالُوا لَن نَّبْرَحَ عَلَيْهِ عَاكِفِينَ حَتَّىٰ يَرْجِعَ إِلَيْنَا مُوسَىٰ (٩١) قَالَ يَا هَارُونُ مَا مَنَعَكَ إِذْ رَأَيْتَهُمْ ضَلُّوا (٩٢) أَلَّا تَتَّبِعَنِ أَفَعَصَيْتَ أَمْرِي (٩٣) قَالَ يَا بْنَؤُمَّ لَا تَأْخُذْ بِلِحْيَتِي وَلَا بِرَأْسِي إِنِّي خَشِيتُ أَن

تَقُولَ فَرَّقْتَ بَيْنَ بَنِي إِسْرَائِيلَ وَلَمْ تَرْقُبْ قَوْلِي (٩٤) قَالَ فَمَا خَطْبُكَ يَا سَامِرِيُّ (٩٥) قَالَ بَصُرْتُ بِمَا لَمْ يَبْصُرُوا بِهِ فَقَبَضْتُ قَبْضَةً مِّنْ أَثَرِ الرَّسُولِ فَنَبَذْتُهَا وَكَذَلِكَ سَوَّلَتْ لِي نَفْسِي (٩٦) قَالَ فَاذْهَبْ فَإِنَّ لَكَ فِي الْحَيَاةِ أَن تَقُولَ لا مِسَاسَ وَإِنَّ لَكَ مَوْعِدًا لَّن تُخْلَفَهُ وَانظُرْ إِلَىٰ إِلَٰهِكَ الَّذِي ظَلْتَ عَلَيْهِ عَاكِفًا لَّنُحَرِّقَنَّهُ ثُمَّ لَنَنسِفَنَّهُ فِي الْيَمِّ نَسْفًا (٩٧) إِنَّمَا إِلَٰهُكُمُ اللَّهُ الَّذِي لا إِلَٰهَ إِلاَّ هُوَ وَسِعَ كُلَّ شَيْءٍ عِلْمًا (٩٨) ﴾ [طه]

وقال جل شأنه :

﴿ وَلَمَّا رَجَعَ مُوسَىٰ إِلَىٰ قَوْمِهِ غَضْبَانَ أَسِفًا قَالَ بِئْسَمَا خَلَفْتُمُونِي مِن بَعْدِي أَعَجِلْتُمْ أَمْرَ رَبِّكُمْ وَأَلْقَى الأَلْوَاحَ وَأَخَذَ بِرَأْسِ أَخِيهِ يَجُرُّهُ إِلَيْهِ قَالَ ابْنَ أُمَّ إِنَّ الْقَوْمَ اسْتَضْعَفُونِي وَكَادُوا يَقْتُلُونَنِي فَلا تُشْمِتْ بِيَ الأَعْدَاءَ وَلا تَجْعَلْنِي مَعَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ (١٥٠) ﴾ [الأعراف]

ويقبل موسى عليه السلام اعتذار أخيه، ويدعو له ولنفسه بالمغفرة والرحمة .

﴿ قَالَ رَبِّ اغْفِرْ لِي وَلأَخِي وَأَدْخِلْنَا فِي رَحْمَتِكَ وَأَنتَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ (١٥١) ﴾ [الأعراف]

وقال موسى للسامرى ما حملك على ما صنعت، فيجيبه فى غرور، فعلت ما فعلت عن بصر وخبرة، ولقد سولت لى نفسى أمرا، فاتبعت هواها فصنعت للقوم هذا العجل فيغضب موسى ويطرده ويدعو عليه، ويتوعده بمرض شديد ينزل به فورا يجعله لا يطيق أن يمس أحدا، أو يمسه أحد.

مرض يجعل الناس تنفر منه وتبتعد عنه وتمقت النظر إليه.

ولعل ما أصاب السامرى هو هشاشة العظام فلا يتحمل لمس أحد ولا يستطيع هو لمس غيره، والبرص الذى يجعل هيئته منفرة مقززة وهو مرض جلدى، وبعض الكتاب المعاصرين يرى أن السامرى هو المسيح الدجال بدليل أن موسى عليه السلام لم يقتله كما قتل عباد العجل لأنه من المنظرين الممهلين وهو كان أحق بالقتل لأنه الفاعل الأصلى والمحرض على الشرك واستدلوا أيضا بأن جبريل كان يربيه كما ورد أن الدجال قد رباه جبريل واستدلوا أيضا - أنه كان خبيرا فى علوم الكيمياء والفيزياء والهندسة وغيرها من العلوم كما هو الشأن فى الدجال لطول عمره وخبرته فى الحياة.

توبتهم من عبادة العجل:

أحس كثير ممن عبد العجل بخطورة الذنب الذى وقعوا فيه وشعروا بالندم الشديد لما ارتكبوه فى حق ربهم وإلههم، ولعلمهم أن الشرك يؤدى بصاحبه إلى الخلود فى النار إذا لم يتب منه قبل موته. فرجعوا إلى موسى عليه السلام يسألونه عن كيفية التوبة.

قال تعالى :

﴿ وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِ يَا قَوْمِ إِنَّكُمْ ظَلَمْتُمْ أَنفُسَكُم بِاتِّخَاذِكُمُ الْعِجْلَ فَتُوبُوا إِلَىٰ بَارِئِكُمْ فَاقْتُلُوا أَنفُسَكُمْ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ عِندَ بَارِئِكُمْ فَتَابَ عَلَيْكُمْ إِنَّهُ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ (٥٤) ﴾ [البقرة]

فأمر الموحدون بقتل المشركين حتى قتلوا منهم عدة آلاف فنزل عفو الله عنهم، وأمر موسى أن يختار من قومه سبعين رجلا إلى المقيات ليعتذوا عن قومهم فطلبوا رؤية الله فأماتهم ثم أحياهم ببركة دعاء موسى واعتذاره عنهم وطلب العفو لهم.

قال تعالى :

﴿ وَإِذْ قُلْتُمْ يَا مُوسَىٰ لَن نُّؤْمِنَ لَكَ حَتَّىٰ نَرَى اللَّهَ جَهْرَةً فَأَخَذَتْكُمُ الصَّاعِقَةُ وَأَنتُمْ تَنظُرُونَ (٥٥) ثُمَّ بَعَثْنَاكُم مِّن بَعْدِ مَوْتِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ (٥٦) ﴾ [البقرة]

قصة بقرة بنى إسرائيل

ذكرت قصة بقرة بنى إسرائيل فى سورة سميت باسمها وهى سورة البقرة المدنية، وذلك لعجب تلك القصة وعظيم دلالتها على قدرة الله الفائقة فى إحياء الموتى وإحقاق الحق وإبطال الباطل.

وفى ثنايا القصة نلمح تعنت وعناد بنى إسرائيل مع نبى الله موسى عليه السلام فى تعيين البقرة الحلوب وذبحها. فقد قتل فى القوم قتيل أمام مدينة يغلق أبوابها ليلا وتفتح نهارا.

فقام أهل المدينة فى الصباح يفتحون أبوابها فوجدوا على أبواب مدينتهم قتيلا فأداروا فيه أى تدافعوا كل منهم ينفي التهمة عن نفسه ويلقيها على الآخر، وحاروا فى التعرف على القاتل، فلجأ القوم إلى نبى الله موسى عليه السلام وطلبوا منه أية من ربه تنطق القتيل باسم القاتل، وهم يريدون أن يتأكدوا من صدق موسى فى دعوته، وأن يستيقنوا أنه كليم الله حقا، فهم قوم ملأ الشك قلوبهم. وأفرخ فى عقولهم، فكلما جاءتهم آية من آيات ربهم لم يكادوا يؤمنوا بها ساعة حتى ترد عليهم الشبهات فتردهم على أعقابهم برغم أنه عاينوا من قبل آيات الله الكثيرة ومعجزاته الباهرة التى خص بها نبيه الكليم عليه السلام. من تحول العصا إلي ثعبان وضياء يده كضوء الشمس وإهلاك فرعون وقومه فى اليم وانفلاق البحر كالطور (الجبل) العظيم وغير ذلك من المعجزات والآيات.

وقد أجابهم موسى عليه السلام إلى ما طلبوا. فدعا ربه أن يريهم آية تكشف لهم أمر من قتل القتيل تضاف إلى معجزاته التى أيده الله بها،

وجعلها برهانا لصدقه فيما يبلغ عنه، فلما أمرهم موسى بذبح بقرة ارتابوا فى ذلك وقالوا لأنفسهم وما شأن البقرة بالقتل، وأى ارتباط بينهما، واتهموا موسى بما لا يليق وواجهوه بأنه يستهزئ بهم. وسألوه عن أوصاف تلك البقرة التى يأمرهم الله بذبحها وسألوه عن لونها. وعن حالها، فأجابهم موسى عليه السلام عن كل ما سألوا، فذحبوها وهم فى شك من أمر نبيهم.

فلما ذحبوها أمرهم موسى أن يضربوا القتيل بعصا ، فقام القتيل حيا بإذن الله ودلهم على من قتله.

وقد حكى القرآن الكريم هذه القصة في ثماني آيات من سورة البقرة، كل آية تحمل فى طياتها من العظات والعبر والحقائق البينة عن طبيعة هذا الشعب وأخلاقه وسلوكه مع أنبياء الله ورسله، ومنهجه في الحياة ونظرته للأمور وتخليهم عن اللين والسماحة.

يقول تعالى :

﴿ وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِ إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَن تَذْبَحُوا بَقَرَةً قَالُوا أَتَتَّخِذُنَا هُزُوًا قَالَ أَعُوذُ بِاللَّهِ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْجَاهِلِينَ ﴿٦٧﴾ قَالُوا ادْعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّن لَّنَا مَا هِيَ قَالَ إِنَّهُ يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٌ لَّا فَارِضٌ وَلَا بِكْرٌ عَوَانٌ بَيْنَ ذَٰلِكَ فَافْعَلُوا مَا تُؤْمَرُونَ ﴿٦٨﴾ قَالُوا ادْعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّن لَّنَا مَا لَوْنُهَا قَالَ إِنَّهُ يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٌ صَفْرَاءُ فَاقِعٌ لَّوْنُهَا تَسُرُّ النَّاظِرِينَ ﴿٦٩﴾ قَالُوا ادْعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّن لَّنَا مَا هِيَ إِنَّ الْبَقَرَ تَشَابَهَ عَلَيْنَا وَإِنَّا إِن شَاءَ اللَّهُ لَمُهْتَدُونَ ﴿٧٠﴾ قَالَ إِنَّهُ يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٌ لَّا

ذَلُولٌ تُثِيرُ الأَرْضَ وَلا تَسْقِي الْحَرْثَ مُسَلَّمَةٌ لاَّ شِيَةَ فِيهَا قَالُوا الآنَ جِئْتَ بِالْحَقِّ فَذَبَحُوهَا وَمَا كَادُوا يَفْعَلُونَ ﴿٧١﴾ وَإِذْ قَتَلْتُمْ نَفْسًا فَادَّارَأْتُمْ فِيهَا وَاللَّهُ مُخْرِجٌ مَّا كُنتُمْ تَكْتُمُونَ ﴿٧٢﴾ فَقُلْنَا اضْرِبُوهُ بِبَعْضِهَا كَذَلِكَ يُحْيِي اللَّهُ الْمَوْتَىٰ وَيُرِيكُمْ آيَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴿٧٣﴾ ثُمَّ قَسَتْ قُلُوبُكُم مِّنْ بَعْدِ ذَلِكَ فَهِيَ كَالْحِجَارَةِ أَوْ أَشَدُّ قَسْوَةً وَإِنَّ مِنَ الْحِجَارَةِ لَمَا يَتَفَجَّرُ مِنْهُ الأَنْهَارُ وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَشَّقَّقُ فَيَخْرُجُ مِنْهُ الْمَاءُ وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَهْبِطُ مِنْ خَشْيَةِ اللَّهِ وَمَا اللَّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴿٧٤﴾ ﴾ [البقرة]

تفصيل القصة:

تعجب القوم وأصابهم الذهول ، لما أمرهم نبيهم موسى عليه السلام بذبح بقرة وتساءلوا فيما بينهم ما لهذه البقرة والتعرف على القاتل؟ ولماذا بقرة بالذات؟ وظنوا أن موسى عليه السلام يعبث بهم ويسخر منهم فقالوا: اتتخذنا هزءا أى اتجعلنا مكانا للهزء، موضعاً للسخرية؟

فلما سمع موسى عليه السلام مقالتهم تبرأ مما نسبوه إليه ، واستعاذ بالله أن يكون واحدا من أولئك الجاهلين الذين يقولون على الله بغير علم ، فقال : ﴿ قَالَ أَعُوذُ بِاللَّهِ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْجَاهِلِينَ ﴾ فكان حليما بهم رغم أنهم وصفوه بما لا يليق بذاته كنبى مرسل. إذ اكتفي بنفى ما نسبوه إليه دون أن يعنفهم بكلمة واحدة، وأخبرهم أن ما نسبوه إليه لا يليق بأمثاله، ولكن هو شأن السفهاء والحمقى.

ومع ذلك يقتنعون ويذهب بهم الحمق إلى أن البقرة المطلوبة ليست

مجرد بقرة ، وإنما هى على أوصاف نادرة لا تتحقق إلا فيها حتى يمكن أن تتخلق معها الآية التى طلبوها، فسألوا موسى عليه السلام أن يدعو ربه أن يبين لهم أوصاف هذه البقرة التى يأمرهم بذبحها إذ قالوا اَدع لنا ربك يبين لنا ماهى.

ولم يقولوا ادع لنا ربنا، ومع هذا فقد أجابهم إلى ما طلبوا.

قال إنه يقول إنها بقرة لا فارض ولا بكر عوان بين ذلك ، أى هى من أواسط البقر فى سعيها ، ليست كبيرة ولا صغيرة، والفارض العجوز التى انقطع نسلها ، والبكر التى لم تلد بعد، فهى وسط بين هذين الطرفين.

وقوله تعالى :

﴿ فَافْعَلُوا مَا تُؤْمَرُونَ ﴾ تنبيه لهم أن ينتهوا عند هذا الحد، وألا يطلبوا وراء هذه الصفات صفات أخرى، ولكن يأبى القوم إلا أن يتعنتوا ويضيقوا على أنفسهم، ويلبسوا بقرتهم أثوابا لا ترى على كثير من البقر، فعادوا إلى موسى يسألونه : ﴿ قَالُوا ادْعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّن لَّنَا مَا لَوْنُهَا ﴾ ، وفي كل مرة يقولون "ربك" ولا يقولون :" ربنا".

ويجيبهم رب العزة تبارك وتعالى إلي ما طلبوا " إنها بقرة صفراء فاقع لونها تسر الناظرين. ويتركهم إلى هذا المركب الخشن الذي اختارون لأنفسهم حتى يتبين لهم أنهم قد شددوا على أنفسهم بغير دا ع ينقضى ذلك.

ويعودون إلى موسى مرة أخرى : ﴿ قَالُوا ادْعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّن لَّنَا مَا هِيَ إِنَّ الْبَقَرَ تَشَابَهَ عَلَيْنَا ﴾

ويأتيهم الجواب من الله تعالى ، ليزيل من نفوسهم كل شبهة قد تدور فى رؤوسهم حتى لا يبقى لهم بعد ذلك شئ يسألون عنه.

قال : ﴿ إِنَّهَا بَقَرَةٌ لاَّ ذَلُولٌ تُثِيرُ الأَرْضَ وَلا تَسْقِي الْحَرْثَ مُسَلَّمَةٌ لاَّ شِيَةَ فِيهَا ﴾ ، أى هى بقرة غير مذلله لحراثة الأرض وسقى الحرث، وهى مسلمة من العيوب لا يشوب لونها الأصفر الفاقع شائبة ، ولا يصيب أعضائها شئ.

وهنا يجد القوم أن بقرتهم قد لبست أوصافا لا تكاد تقع إلا فى القليل النادر، فيجدون فى البحث عنها، وهم سعداء بهذا اللهث المرهق وراءها، ويلقون إلى موسى بتلك الفرحة التى ملأت صدورهم قبل أن يعثروا عليها:

﴿ الآنَ جِئْتَ بِالْحَقِّ ﴾ .. الآن فقط . ﴿ فَذَبَحُوهَا وَمَا كَادُوا يَفْعَلُونَ ﴾ أى أنهم لم يكادوا يجدون بقرة على تلك الصفة.

والقوم لما عبدوا العجل وخالط حبه قلوبهم أراد الله تعالى أن يكون كشف سر القتيل بذبح بقرة وضربه ببعضها حتى ينزع من قلوبهم حب العجل إذا ما ذبحوا عجلا بأيديهم. ولولا قولهم وإنا إن شاء الله لمهتدون ، ما وفقهم الله لذبحها. ولقد شددوا على أنفسهم فشدد الله عليهم ، ولو ذبحوا أى بقرة لكان لهم ما أرادوا ولكانوا قائمين بالأمر.

فقلنا اضربوه ببعضها كذلك يحيى الله الموتى ويريكم آياته لعلكم تعقلون ويضربون الميت ببعض لحم البقرة، فتعود إليه الحياة، وينطق باسم قاتله ثم يعود ميتا كما كان.

وتلازم الأسباب والمسببات مرهون بارادة الله تعالى وبقدرته حيث أن القتيل قام حيا بإرادة الله ومشيئته وقدرته.

ورغم رؤيتهم لهذه الآية تمادى القوم فى غلوهم وضلالهم وسوء ظنهم بموسى وبالأنبياء الذى أتوا بعده؟

قال تعالى :

﴿ ثُمَّ قَسَتْ قُلُوبُكُم مِّنْ بَعْدِ ذَلِكَ فَهِيَ كَالْحِجَارَةِ أَوْ أَشَدُّ قَسْوَةً ﴾ أى هى أشد قسوة ، لا تقتنع من الخير.

قيل أنهم اشتروا البقرة من يتيم بملئ جلدها ذهبا فأكرمه الله بهذه الصفقة لأنه كان بارا بأمه فالله أعلى وأعلم.

قصة الذين خرجوا من ديارهم
فرارا من الموت

قال تعالى فى سورة البقرة:

﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ خَرَجُوا مِن دِيَارِهِمْ وَهُمْ أُلُوفٌ حَذَرَ الْمَوْتِ فَقَالَ لَهُمُ اللَّهُ مُوتُوا ثُمَّ أَحْيَاهُمْ إِنَّ اللَّهَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى النَّاسِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لا يَشْكُرُونَ (٢٤٣) ﴾. [البقرة]

فهذه الآيات تحكى قصة قوم خرجوا من ديارهم فرارا من الموت وهم جمع كثير جم غفير، قيل كانوا ستين ألفاً وقيل غير ذلك فى عددهم فأماتهم الله موتة رجل واحد عقابا لهم، وزجرا لمن يصنع صنيعهم، ثم أحياهم من بعد موتهم رحمة بهم، ليستكملوا أجالهم، وقد طوى الله تعالى ذكر نسب هؤلاء وبلدهم وعددهم.

ويقول المفسرون إنهم كانوا من بنى إسرائيل وأن نبيهم هو جزفيل عليه السلام.

وهؤلاء الناس على كثرتهم قد خرجوا من ديارهم خوفا على أنفسهم من الموت بالطاعون أو بأيدى عدوهم.

وللناس أن يخرجوا من بلد فيه وباء إلي بلد أخرى بشرط ألا تكون هذه البلد مسكونة بقوم أخرين حتى لا ينقلوا لهم العدوى قال رسول الله ﷺ إذا رأيتم الطاعون بأرض فلا تدخلوا إليها ولا تخرجوا منهم.

والأرجح أنهم خرجوا فرارا من أعدائهم حيث أن الآية قد سيقت لبيان العبرة- إذ افتتحت بقوله تعالى :

﴿ أَلَمْ تر ﴾ أى ألم تنظر بعين بصيرتك متعظا بحال أولئك ﴿ الَّذِينَ خَرَجُوا مِن دِيَارِهِمْ ﴾ ؟ فإن كنت لا تعلم بحالهم فنحن نحكى لك حالهم.

ولورود هذه القصة بين يدى ذكر القتال، فقد جاء بعدها قوله تعالى : ﴿ وقاتلوا فى سبيل الله واعلموا أن الله سميع عليم ﴾.

ولو كانوا قد خرجوا فرارا من الطاعون ما كان لقوله تعالى وهم ألوف فائدة إذ أن ذكر العدد يدل على جبن هؤلاء القوم وضعف هممهم. وخور عزائمهم، فقد دعاهم نبيهم حزقيال إلى الجهاد، فنكصوا على أعقابهم وكرهوا لقاء عدوهم، فخرجوا من ديارهم تاركين ما وراءهم للعدو وهم جمع غفير.

والراجح أنهم من بنى إسرائيل لأنهم عرفوا بالجبن فى مواطن كثيرة، فقد قالوا لموسى عليه السلام لما أمرهم بدخول بيت المقدس كما حكى القرآن عنهم ﴿ إِنَّ فِيهَا قَوْمًا جَبَّارِينَ وَإِنَّا لَن نَّدْخُلَهَا حَتَّىٰ يَخْرُجُوا مِنْهَا فَإِن يَخْرُجُوا مِنْهَا فَإِنَّا دَاخِلُونَ (٢٢) ﴾ [المائدة]

وقد أماتهم الله موت رجل واحد لقوله تعالى : ﴿ فقال لهم الله موتوا ﴾ أى حكم عليهم جميعا بالموت فى وقت واحد وبكلمة واحدة.

والفرار من الجهاد تهلكة ودمار، ومذلة ومسكنة وكبيرة من الكبائر. وفى الخوف من الموت موت معجل، لأنه يحطم القوى المعنوية عند الخائف،

ويعوقه عن الإقدام لحماية نفسه وحرماته، ويمكن عدوه منه بأى سبيل بل ومن غير قتال.

وهذه القصة قد ضربها الله تعالى مثلا للجبناء من ضعفاء الإيمان الذين يكرهون لقاء الله، ويؤثرون (يفضلون) السلامة فى مذلة على الحرب فى عزة.

وقد حذر الله تعالى الجبناء فى سورة البقرة فى آية سابقة حذرهم من عواقب التخلى عن القتال أو رغبتهم فى الجهاد بما يتبعه من استشهاد أو غنيمة فقال جل شأنه :

﴿ كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِتَالُ وَهُوَ كُرْهٌ لَّكُمْ وَعَسَىٰ أَن تَكْرَهُوا شَيْئًا وَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ وَعَسَىٰ أَن تُحِبُّوا شَيْئًا وَهُوَ شَرٌّ لَّكُمْ وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لا تَعْلَمُونَ (٢١٦) ﴾ [البقرة]

وغير ذلك من الآيات التى تحض على الجهاد وتحذر من الجبن والاستسلام لأعداء الإسلام.

قصة العزير

قال تعالى :

﴿أَوْ كَالَّذِي مَرَّ عَلَىٰ قَرْيَةٍ وَهِيَ خَاوِيَةٌ عَلَىٰ عُرُوشِهَا قَالَ أَنَّىٰ يُحْيِي هَٰذِهِ اللَّهُ بَعْدَ مَوْتِهَا فَأَمَاتَهُ اللَّهُ مِائَةَ عَامٍ ثُمَّ بَعَثَهُ قَالَ كَمْ لَبِثْتَ قَالَ لَبِثْتُ يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ قَالَ بَل لَّبِثْتَ مِائَةَ عَامٍ فَانظُرْ إِلَىٰ طَعَامِكَ وَشَرَابِكَ لَمْ يَتَسَنَّهْ وَانظُرْ إِلَىٰ حِمَارِكَ وَلِنَجْعَلَكَ آيَةً لِّلنَّاسِ وَانظُرْ إِلَى الْعِظَامِ كَيْفَ نُنشِزُهَا ثُمَّ نَكْسُوهَا لَحْمًا فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُ قَالَ أَعْلَمُ أَنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ (٢٥٩)﴾ [البقرة]

وهذه الآيات تروى قصة رجل مر على قرية خربة، فقال متعجبا : كيف يحيى الله هذه القرية بعد موتها؟! فأماته الله مائة عام فى مكان بعيد عن القرية، فلما بعثه أوحى إليه يسأله- وهو العليم بحاله- عن المدة التى لبثها نائما نومة الموت ، فقال : لبثت يوما أو بعض يوم. فأخبره ربه أنه لبث (مكث) ميتا مائة عام.

وجمهور المفسرين يقولون : إن هذا الرجل هو : (العزير بن حروه) ويقولن إن المراد بالقرية بيت المقدس، ويروون أن العزير رآها بعد أن خربها ملك كافر اسمه بختنصر ملك بابل سلطه الله تعالى على بنى إسرائيل بسبب عصيانهم وظلمهم وقتلهم للأنبياء. فسبى نساءهم وذراريهم (أبناءهم) واستولي على التوراة وضرب بيت المقدس. وأن نبيهم أرميا قد حذرهم ذلك قبل أن يقع فلم يصدقوه، وأن بختصر قتل من الرجال ألوفا ووجد دم يحيى

ابن زكريا عليهما السلام يفور فقتل عليه كما قيل سبعين ألفاً حتى سكن الدم.

وقصة العزيز عليه السلام دليل على عظيم قدرة الله تعالى على إحياء الموتى وإخراجهم من قبورهم فى يوم لا ريب فيه.

ولم يكن العزير شاكا فى قدرة الله سبحانه وتعالى ، ولكنه كان يسأل نفسه متأملا، وهو يعلم قدرة الله تعالى وعدله وحكمته وقدره إذ سلط على هذه القرية من شتت شملهم ، وفرق جمعهم ، وضرب ديارهم. ومزقهم كل ممزق.

ويستيقظ الرجل من سباته العميق الذى استمر مائة سنة ليرى القرية آهلة بالسكان ، مليئة بالخيرات - فيسأله ربه - قبل أن يتوجه إليها ويلتقى بأهلها- عن مدة مكثه فى سباته، فيخبره الله تعالى بما لم يكن هذا الرجل يعلمه ، ويأمره الله عز وجل عن طريق الوحى أن ينظر فى طعامه وشرابه إنه كما هو يتسنه، أى لم يتغير عن حاله التى كان عليها منذ مائة عام.

وأمر فكان ينظر إلى حماره وهو عظام بالية وقد نظر العزيز إلي حماره أو إلى بقايا حماره فرأى العظام يعاد تركيبها على النحو الذى كان عليه ، وإتمام خلقه. وإبراهيم عليه السلام قبل العزيز قد شاهد الطيور وهى تأتى إليه سعيا بعد أن ذبحها وقطعها وفرقها.

فلما رأى العزير هذه الآيات نطق وشهد: أعلم أن الله على كل شئ قدير.

وكان العزير يحفظ التوراة، ولم يكن في قريته من يحفظها، فلما التقى بهم وأخبرهم أنه العزير أنكروه، وقالوا: إن العزيز قد مات منذ مائة عام أو أكثر- فأخذ يعرفهم بنفسه حتى عرفوه، وقيل إن إم أمه كانت على قيد الحياة وكانت لا تبصر ، فلما دخل عليها ولمسته بيديها عرفت أنه ولدها.

فالتف حوله أهل القرية وأجلوه وعظموه وتعلموا منه الكثير من العلم، وتلقوا عنه التوراة مشافهة، ولكن اليهود قوم لا تخلص عقيدتهم من شبهات ، فقد زعم بعضهم : أنه ابن الله، وتكلفوا فى تعظيمه حيا وميتا. ﴿ وَقَالَتِ الْيَهُودُ عُزَيْرٌ ابْنُ اللَّهِ وَقَالَتِ النَّصَارَى الْمَسِيحُ ابْنُ اللَّهِ ذَلِكَ قَوْلُهُم بِأَفْوَاهِهِمْ يُضَاهِئُونَ قَوْلَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِن قَبْلُ قَاتَلَهُمُ اللَّهُ أَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ (٣٠) ﴾ [التوبة]

وقد روى المفسرون أن عزيرا كان عبدا صالحا حكيما خرج ذات يوم إلى ضيعة له يتعاهدها، فلما انصرف آتى إلي خربة حين قامت الظهيرة وأصابه الحر ودخل الخربة وهو على حماره ، فنزل عن حماره ومعه سلة فيها تين وسلة فيها عنب، فنزل فى ظل تلك الخربة وأخرج قصعة معه فاعتصر من العنب الذى كان معه فى القصعة، ثم أخرج خبزا يابسا معه فألقاه فى تلك القصعة فى العصير ليبتل ليأكله، ثم استلقى على قفاه واسند رجليه إلى الحائط، فنظر سقف تلك البيوت ورأى مافيها، وهى قائمة على عروشها وقد باد أهلها، ورأى عظاما بالية فقال : " أنى يحيى هذه الله من موتها فلم يشك أن الله يحييها ولكن قالها تعجبا، فبعث الله ملك الموت فقبض روحه فأماته الله مائة عام، فلما أتت عليه مائة عام وكانت فيما بين

ذلك فى بنى إسرائيل أمور وأحداث قال : فبعث الله إلى عزير ملكا فخلق قلبه ليعقل قلبه، وعينيه لينظر بهما، فيعقل كيف يحيى الله الموتى، ثم ركب خلفه وهو ينظر ثم كسا عظامه اللحم والشعر والجلد، ثم نفخ فيه الروح كل ذلك وهو يرى ويعقل، فاستوى جالسا، فقال له الملك: " كم لبثت قال لبثت يوما أو بعض يوم، وذلك أنه كان لبث صدر النهار عند الظهيرة وبعث فى آخر النهار والشمس لم تغب، فقال : أو بعض يوم" ولم يتم لى يوم ، فقال له الملك : " بل لبثت مائة عام فانظر إلي طعامك وشرابك، يعنى بالطعام : الخبز اليابس، وبشرابه: العصير الذى كان اعتصره في القصعة فإذا هما على حالهما لم يتغير العصير والخبز يابس، فذلك قوله " لم يتسنه" يعنى لم يتغير وكذلك التين والعنب غض لم يتغير شئ من حالهما، فكأنه أنكر فى قلبه، فقال له الملك : آنكرت ما قلت لك " انظر إلى حمارك فنظر إلي حماره قد بليت عظامه وصارت نخرة، فنادى الملك عظام الحمار فأجابت وأقبلت من كل ناحية حتى ركبه الملك، وعزير ينظر إليه، ثم ألبسها العروق والعصب، ثم كساها اللحم، ثم أنبت عليها الجلد والشعر، ثم نفخ فيه الملك ، فقام الحمار رافعا رأسه وأذنيه إلي السماء ناهقا يظن القيامة قد قامت، فذلك قوله ﴿ **انظر إلي حمارك ولنجعلك آية للناس وانظر إلى العظام كيف ننشزها ثم نكسوها لحما** ﴾ يعنى وانظر إلى عظام حمارك كيف يركب بعضها بعضا فى أوصالها : حتى إذا صارت عظاما مصورا بلا لحم، ثم انظر كيف نكسوها لحما" فلما تبين له قال أعلم أن الله على كل شئ قدير، من إحياء الموتى وغيره، قال : فركب حماره حتى أتى محلته فأنكره الناس، وأنكر الناس، وأنكر منزله فانطلق على وهم منه حتى أتى منزله، فإذا هو

بعجوز عمياء مقعدة قد أتى عليها مائة وعشرون سنة كانت أمة لهم فخرج عنهم عزير وهى بنت عشرين سنة، وكانت عرفته وعقلته فلما أصابها الكبر أصابها الزمانة، فقال لها عزير: يا هذه أهذا منزل عزير؟ فقالت : نعم هذا منزل عزير، فبكت وقالت : ما رأيت أحدا من كذا وكذا سنة يذكر عزيرا وقد نسيه الناس، قال : فإنى أنا عزير كان الله أماتنى مائة سنة ثم بعثنى، قالت : سبحان الله فإن عزيرا قد فقدناه منذ مائة سنة فلم نسمع له بذكر، قال : فإنى أنا عزير، قالت : فإن عزيرا رجل مستجاب الدعوة يدعو للمريض ولصاحب البلاء بالعافية والشفاء، فادع الله أن يرد على بصرى حتى أراك فإن كنت غزيرا عرفتك ، قال : فدعا ربه ومسح بيده على عينيها فصحتا، وأخذ بيدها وقال : قومي بإذن الله فأطلق الله رجليها فقامت صحيحة كأنما نشطت من عقال، فنظرت فقالت : أشهد أنك عزير، وانطلقت إلى محلة بنى إسرائيل وهم في أنديتهم ومجالهم وأن العزير شيخ ابن مائة سنة وثمانى عشرة سنة، وبنى بنيه شيوخ فى المجلس، فنادتهم فقالت : هذا عزير قد جاءكم، فكذبوها فقالت : أنا فلانة مولاتكم دعى لى ربه فرد على بصرى وأطلق رجلى، وزعم أن الله أماته مائة سنة ثم بعثه، قال : فنهض الناس فأقبلوا إليه فنظرو إليه فقال ابنه : كان لأبى شامة سوداء بين كتفيه؟ فكشف .عن كتفيه فإذا هو عزير. فقالت بنو إسرائيل : فإنه لم يكن فينا أحد حفظ للتوراة فيما حُدثنا غير عزير، فاكتبها لنا وكان أبوه سروخا قد دفن التوراة أيام نُجت نصرَّ فى موضع لا يعرفه أحد غير عزير، فانطلق بهم إلى ذلك الموضع فحفره فاستخرج التوراه، وكان قد عفن الورق ودرس الكتاب.

قال : وجلس فى ظل شجرة وبنو إسرائيل حوله فجدد لهم التوراة، ونزل من السماء شهابان حتى دخلا جوفه فتذكر التوراة فجددها لبنى إسرائيل؟ ثم قالت اليهود (عزير ابن الله) للذى كان من أمر الشهابين وتجديده التوراة وقيامه بأمر بنى إسرائيل ، وكان جدد لهم التوراة بأرض السواد بدير حزفيل، والقرية التى مات فيها يقال لها : سايرا باد . وقد اختلف فى العزير أهو نبى أم لا المشهور أنه نبى من أنبياء بنى إسرائيل قال وهب بن منبه : أمر الله ملكا نزل بمعزفة من نور فقذفها فى عزير فنسخ التوراة حرفا بحرف حتى فرغ منها .

قصة مؤمن آل فرعون
وقصة قارون

موقف مؤمن آل فرعون

عقد فرعون وهامان وزيره وقارون صاحب الكنوز والأموال الكثيرة وهو من كبار رجال دولة فرعون عقدوا العزم على قتل موسى عليه السلام ومن معه من المؤمنين. وعلم بذلك رجل من الذين آمنوا بموسى عليه السلام، وكان هذا الرجل من أقرباء فرعون قيل أنه كان أخا لزوجة فرعون آسية بنت مزاحم رضى الله عنها.

أسرع الرجل المؤمن الذى كان يكتم إيمانه عن قومه ليعين موسى عليه السلام فى دعوته، أسرع إلى موسى عليه السلام ليطلعه على ما اتفق عليه فرعون وأعوانه الظالمون. وقام فدعا الناس إلي التمهل والتعقل والتفكير فى هذا الأمر الخطير، ودعا فرعون وقومه إلى الإيمان بأسلوب شيق مقنع يؤثر فى القلوب. قد جاءت قصته فى سورة غافر.

لما آمن السحرة- سحرة فرعون - بموسى وهارون عليهما السلام، اشتد غيظ فرعون، واحساسه بالفشل والاحباط وانكشاف باطله وخشى أن يؤمن الناس كما آمن السحرة وتابوا. وقام هامان وزير السوء باثارة غضب فرعون الطاغية ، الذى أدعى الألوهية وقال أنا ربكم الأعلى، وخوفه على ملكه ، وأشار عليه بقتل أبناء الذين آمنوا بموسى واستبقاء نسائهم للخدمة فى البيوت.

يقول تعالى :

﴿ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ بِآيَاتِنَا وَسُلْطَانٍ مُّبِينٍ (٢٣) إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَهَامَانَ وَقَارُونَ فَقَالُوا سَاحِرٌ كَذَّابٌ (٢٤) فَلَمَّا جَاءَهُم بِالْحَقِّ مِنْ عِندِنَا قَالُوا اقْتُلُوا أَبْنَاءَ الَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ وَاسْتَحْيُوا نِسَاءَهُمْ وَمَا كَيْدُ الْكَافِرِينَ إِلَّا فِي ضَلَالٍ (٢٥) ﴾ [غافر]

وهكذا يلجأ أصحاب الباطل من الطغاة إلى استخدام القوة لاسكات صوت الحق إذا لم يجد حجة مقنعة وبرهانا ساطعا على باطله والحق ظاهر واضح والباطل لا تقوم له حجة مقنعة.

أما فرعون فقد رأى أن يقتل موسى أولا ليعلم الناس أنه لو كان له رب غيره لحال بينه وبين قتله ولخلصه من بطشه.

﴿ وَقَالَ فِرْعَوْنُ ذَرُونِي أَقْتُلْ مُوسَىٰ وَلْيَدْعُ رَبَّهُ إِنِّي أَخَافُ أَن يُبَدِّلَ دِينَكُمْ أَوْ أَن يُظْهِرَ فِي الْأَرْضِ الْفَسَادَ (٢٦) ﴾ [غافر]

هكذا يتهم فرعون لعنه الله يتهم موسى عليه السلام بأنه يفسد فى الأرض . ولما علم موسى عليه السلام بما يدبره فرعون وقومه من المستشارين والأعوان وكبراء دولته، استعاذ بحول الله وقوته من كل جبار متكبر ، لا يؤمن بالقيامة والحساب والجزاء.

قال تعالى : ﴿ وَقَالَ مُوسَىٰ إِنِّي عُذْتُ بِرَبِّي وَرَبِّكُم مِّن كُلِّ مُتَكَبِّرٍ لَّا يُؤْمِنُ بِيَوْمِ الْحِسَابِ (٢٧) ﴾ [غافر]

وقد استجاب الله تعالى لنبيه موسى عليه السلام فأعاذه وحماه ومن معه من المؤمنين من فرعون وشره. وسخر له هذا الرجل المؤمن يدافع عنه بالحجة والموعظة الحسنة، ويعينه فى تبليغ رسالة ربه، وتثبيت دعائم الإيمان فى قلوب المؤمنين بالحجة القاطعة والبرهان الساطع.

قال تعالى : ﴿ وَقَالَ رَجُلٌ مُّؤْمِنٌ مِّنْ آلِ فِرْعَوْنَ يَكْتُمُ إِيمَانَهُ أَتَقْتُلُونَ رَجُلاً أَن يَقُولَ رَبِّيَ اللَّهُ وَقَدْ جَاءَكُم بِالْبَيِّنَاتِ مِن رَّبِّكُمْ وَإِن يَكُ كَاذِبًا فَعَلَيْهِ كَذِبُهُ وَإِن يَكُ صَادِقًا يُصِبْكُم بَعْضُ الَّذِي يَعِدُكُمْ إِنَّ اللَّهَ لا يَهْدِي مَنْ هُوَ مُسْرِفٌ كَذَّابٌ (٢٨) ﴾ [غافر]

يذكرهم بفظاعة ما قرروه من قتل رجل يقول ربى الله، وهو قد دلل على صدقه فيما جاءكم به من البينات، وليس فى وسعكم إنكار شئ منها، وقد رأيتم السحرة قد سلموا له وأقروا بصدقه، وخروا لله سجدا وفضلوا الآخرة على الدنيا.

ثم يفرض لهم أسوء الفروض يقول : إن يك كاذبا فعليه وزر كذبه، وهو وحده يتحمل تبعة عمله، وان يكن موسى صادقا يصيبكم بعض ما وعدكم به من خير فى الدنيا والآخرة، ليس هناك مبرر لقتله.

ثم يهددهم ويخوفهم بالله تعالى : ﴿ ان الله لايهدى من هو مسرف كذاب ﴾ وهذا تهديد لهم غير مباشر بصيغة العموم. فكأنه يقول إن الله تعالى ينتقم من المسرف الكذاب فلا تكونوا مسرفين كاذبين.

وهو بهذا القول يخبرهم أن الله وحده بيده الأمر كله، وهو وحده الذى

يجب الإيمان به وعبادته دون فرعون أو غيره.

ثم ينتقل بهم إلى أسلوب أشد ويخوفهم من عقاب الله فى الدنيا والآخرة فيقول : " ياقوم لكم الملك اليوم ظاهرين فى الأرض فمن ينصرنا من بأس الله إن جاءنا".

فيرد فرعون وقد ساءه النصح والوعظ واعتبره إساءة في حقه وجرأة عليه واستخفافا بسلطانه ، فهو الطاغية الجبار المتمرد الذى يريد الخضوع الكامل من الناس كلهم دون معارضة.

﴿ يَا قَوْمِ لَكُمُ الْمُلْكُ الْيَوْمَ ظَاهِرِينَ فِي الأَرْضِ فَمَن يَنصُرُنَا مِنْ بَأْسِ اللَّهِ إِن جَاءَنَا قَالَ فِرْعَوْنُ مَا أُرِيكُمْ إِلاَّ مَا أَرَىٰ وَمَا أَهْدِيكُمْ إِلاَّ سَبِيلَ الرَّشَادِ (٢٩) ﴾ [غافر]

أى أنه ليس لكم عندى فى هذا الأمر إلا ما رأيته من قبل وما سمعتموه منى حين قلت لكم " ذرونى أقتل موسى وليدع ربه تلك الكلمة التى فيها رشادكم وحمايتكم مما يتهددكم من الشر، فهل تشكون فى حمايتى لكم وأرتياد مواقع الخير والأمن والسلامة لكم.

وقبل أن ينفض المجلس يبادر الرجل المؤمن فيقول : ﴿ وَقَالَ الَّذِي آمَنَ يَا قَوْمِ إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُم مِّثْلَ يَوْمِ الأَحْزَابِ (٣٠) مِثْلَ دَأْبِ قَوْمِ نُوحٍ وَعَادٍ وَثَمُودَ وَالَّذِينَ مِنْ بَعْدِهِمْ وَمَا اللَّهُ يُرِيدُ ظُلْمًا لِّلْعِبَادِ (٣١) وَيَا قَوْمِ إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ يَوْمَ التَّنَادِ (٣٢) يَوْمَ تُوَلُّونَ مُدْبِرِينَ مَا لَكُم مِّنَ اللَّهِ مِنْ عَاصِمٍ وَمَن يُضْلِلِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ هَادٍ (٣٣) وَلَقَدْ جَاءَكُمْ يُوسُفُ مِن قَبْلُ بِالْبَيِّنَاتِ

فَمَا زِلْتُمْ فِي شَكٍّ مِّمَّا جَاءَكُم بِهِ حَتَّىٰ إِذَا هَلَكَ قُلْتُمْ لَن يَبْعَثَ اللَّهُ مِنْ بَعْدِهِ رَسُولاً كَذَلِكَ يُضِلُّ اللَّهُ مَنْ هُوَ مُسْرِفٌ مُّرْتَابٌ (٣٤) ﴾ [غافر]

أبنائى الأعزاء:

بادر الرجل المؤمن بالقاء هذه الكلمات قبل أن ينفض المجلس – مجلس الشورى – وكأنه يقول إن كلمة فرعون ليست هى الأخيرة ويكلمهم بأشد الكلام ويزجرهم ويخوفهم عاقبة الأمم المتردة الكافرة قبلهم وعاتبه الملوك الجبابرة. ومع ذلك يتودد إليهم ويخاطب عقولهم وقلوبهم فيناديهم نداء الشفقة والاستكاف محذرا إياهم من طاعة فرعون الطاغية، حتى لا يصيبهم ما أصاب الأمم المكذبة قبلهم وهم قوم نوح وعاد وثمود والذين من بعدهم وهم أباؤهم الذين بعث إليهم يوسف عليه السلام. ومن المعلوم أن موسى عليه السلام من أحفاد يوسف عليه السلام.

يقول الله تعالى :

﴿ وَلَقَدْ جَاءَكُمْ يُوسُفُ مِن قَبْلُ بِالْبَيِّنَاتِ فَمَا زِلْتُمْ فِي شَكٍّ مِّمَّا جَاءَكُم بِهِ حَتَّىٰ إِذَا هَلَكَ قُلْتُمْ لَن يَبْعَثَ اللَّهُ مِنْ بَعْدِهِ رَسُولاً كَذَلِكَ يُضِلُّ اللَّهُ مَنْ هُوَ مُسْرِفٌ مُّرْتَابٌ (٣٤) الَّذِينَ يُجَادِلُونَ فِي آيَاتِ اللَّهِ بِغَيْرِ سُلْطَانٍ أَتَاهُمْ كَبُرَ مَقْتاً عِندَ اللَّهِ وَعِندَ الَّذِينَ آمَنُوا كَذَلِكَ يَطْبَعُ اللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ قَلْبِ مُتَكَبِّرٍ جَبَّارٍ (٣٥) ﴾ [غافر]

وينفض المجلس من غير أن يستجيب القوم لهذا الناصح الحكيم، إما لخوفهم من فرعون وإما لرغبتهم فى عطاياه وقربه.

أسرع فرعون يسخر من موسى عليه السلام ويزعزع قلوب الناس خشية أن يدخلوا فى دين موسى عليه السلام، فأمر وزيره هامان أن يبنى له صرحا يصعد عليه فينظر إلى إله موسى.

قال تعالى :

﴿ وَقَالَ فِرْعَوْنُ يَا هَامَانُ ابْنِ لِي صَرْحًا لَّعَلِّي أَبْلُغُ الأَسْبَابَ (٣٦) أَسْبَابَ السَّمَوَاتِ فَأَطَّلِعَ إِلَىٰ إِلَهِ مُوسَىٰ وَإِنِّي لأَظُنُّهُ كَاذِبًا وَكَذَلِكَ زُيِّنَ لِفِرْعَوْنَ سُوءُ عَمَلِهِ وَصُدَّ عَنِ السَّبِيلِ وَمَا كَيْدُ فِرْعَوْنَ إِلاَّ فِي تَبَابٍ (٣٧) ﴾ [غافر]

وقال تعالى :

﴿ وَقَالَ فِرْعَوْنُ يَا أَيُّهَا الْمَلأُ مَا عَلِمْتُ لَكُم مِّنْ إِلَهٍ غَيْرِي فَأَوْقِدْ لِي يَا هَامَانُ عَلَى الطِّينِ فَاجْعَل لِّي صَرْحًا لَّعَلِّي أَطَّلِعُ إِلَىٰ إِلَهِ مُوسَىٰ وَإِنِّي لأَظُنُّهُ مِنَ الْكَاذِبِينَ (٣٨) ﴾ [القصص]

وهنا يخرج الرجل المؤمن عن سلطان فرعون ويعلن إيمانه من غير مواربة (إخفاء).

﴿ وَقَالَ الَّذِي آمَنَ يَا قَوْمِ اتَّبِعُونِ أَهْدِكُمْ سَبِيلَ الرَّشَادِ (٣٨) يَا قَوْمِ إِنَّمَا هَذِهِ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا مَتَاعٌ وَإِنَّ الآخِرَةَ هِيَ دَارُ الْقَرَارِ (٣٩) مَنْ عَمِلَ سَيِّئَةً فَلا يُجْزَىٰ إِلاَّ مِثْلَهَا وَمَنْ عَمِلَ صَالِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُوْلَئِكَ يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ يُرْزَقُونَ فِيهَا بِغَيْرِ حِسَابٍ (٤٠) وَيَا قَوْمِ مَا لِي أَدْعُوكُمْ إِلَى

النَّجَاةِ وَتَدْعُونَنِي إِلَى النَّارِ (٤١) تَدْعُونَنِي لأَكْفُرَ بِاللَّهِ وَأُشْرِكَ بِهِ مَا لَيْسَ لِي بِهِ عِلْمٌ وَأَنَا أَدْعُوكُمْ إِلَى الْعَزِيزِ الْغَفَّارِ (٤٢) لا جَرَمَ أَنَّمَا تَدْعُونَنِي إِلَيْهِ لَيْسَ لَهُ دَعْوَةٌ فِي الدُّنْيَا وَلا فِي الآخِرَةِ وَأَنَّ مَرَدَّنَا إِلَى اللَّهِ وَأَنَّ الْمُسْرِفِينَ هُمْ أَصْحَابُ النَّارِ (٤٣) فَسَتَذْكُرُونَ مَا أَقُولُ لَكُمْ وَأُفَوِّضُ أَمْرِي إِلَى اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ بَصِيرٌ بِالْعِبَادِ (٤٤) ﴾ [غافر]

فلما أدى واجب الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر وأداء النصيحة لقومه وأهله، وظهر صدق توكله على الله تعالى والثقة بما عذره والرضا بقضائه وقدره، نجاه الله تعالى من سيئات أعمالهم، وأهلك فرعون ومن معه بالغرق وأوردهم النار فى قبورهم، وأعد لهم يوم القيامة عذابا ليس كمثله عذاب.

قال تعالى :

﴿ فَوَقَاهُ اللَّهُ سَيِّئَاتِ مَا مَكَرُوا وَحَاقَ بِآلِ فِرْعَوْنَ سُوءُ الْعَذَابِ (٤٥) النَّارُ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا غُدُوًّا وَعَشِيًّا وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ أَدْخِلُوا آلَ فِرْعَوْنَ أَشَدَّ الْعَذَابِ (٤٦) ﴾ [غافر]

وهذه الآية من جملة الآيات الدالة على عذاب القبر الذى يلحق المجرمين والكافرين لأن معنى الغد أول النهار والعشى آخر النهاد ثم قال : ويقوم تقوم الساعة أى أن هذا العذاب فى أثناء النهار والليل غير عذاب القيامة.

قصة قارون

بنى العزيز، بنيتى العزيزة:

قصة قارون مرويه فى سورة القصص، وهى قصة بالغة العبرة والعظة والاعتبار، تبين عاقبة البغى (الظلم) والغرور والاعتداد بالمال والركون عليه وجمعه من الحلال والحرام والمبالغة في هذا الجمع وجعله الهدف الأكبر للحياة والتطاول على الناس والتكبر عليهم بسبب هذا الغنى الفاحش وفى نهاية القصة تذكر الآيات أن العاقبة للمتقين أى أن الخير يكون في نهاية الأمر للمتقين الذين يخافون الله ويؤدون واجب الشكر ويؤدون حقوق الله وحقوق العباد مع التواضع لله رب العالمين.

يقول تعالى :

﴿ إِنَّ قَارُونَ كَانَ مِن قَوْمِ مُوسَىٰ فَبَغَىٰ عَلَيْهِمْ وَآتَيْنَاهُ مِنَ الْكُنُوزِ مَا إِنَّ مَفَاتِحَهُ لَتَنُوءُ بِالْعُصْبَةِ أُولِي الْقُوَّةِ إِذْ قَالَ لَهُ قَوْمُهُ لا تَفْرَحْ إِنَّ اللَّهَ لا يُحِبُّ الْفَرِحِينَ (٧٦) وَابْتَغِ فِيمَا آتَاكَ اللَّهُ الدَّارَ الآخِرَةَ وَلا تَنسَ نَصِيبَكَ مِنَ الدُّنْيَا وَأَحْسِن كَمَا أَحْسَنَ اللَّهُ إِلَيْكَ وَلا تَبْغِ الْفَسَادَ فِي الأَرْضِ إِنَّ اللَّهَ لا يُحِبُّ الْمُفْسِدِينَ (٧٧) قَالَ إِنَّمَا أُوتِيتُهُ عَلَىٰ عِلْمٍ عِندِي أَوَ لَمْ يَعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ قَدْ أَهْلَكَ مِن قَبْلِهِ مِنَ الْقُرُونِ مَنْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُ قُوَّةً وَأَكْثَرُ جَمْعًا وَلا يُسْأَلُ عَن ذُنُوبِهِمُ الْمُجْرِمُونَ (٧٨) ﴾ [القصص]

كان قارون من قوم موسى قيل كان ابن عم له، وكان قد تتلمذ على يديه وسمع منه التوراة ولكنه آثر (فضل) الدنيا على الآخرة، فلم ينتفع

بالعلم لأن العالم يجب أن يتصف بالخشية لله تعالى كما قال تعالى : ﴿ إنما يخشى الله من عباده العلماء ﴾ وكذلك يجب أن يتصف العالم بالحلم والصبر واليقين، وكان يتمتع بملكه اقتصادية ومعارف مالية فاستغل علمه فى الشر واغتر بهذا العلم ووظف امكانياته وذكاءه لجمع المال من الحرام وفرض الإتاوات والسمسرة والعمولات والرشاوى وغيرها من وسائل استغلال الفقراء ونهب المال العام، والاضرار بمصالح الناس باكتناز المال وحجبه عن مصارفه الشرعية.

وحسد قارون موسى عليه السلام على ما آتاه الله من فضله وعلمه وكلامه وقربه واصطفائه (اختياره) رسولا إلي فرعون، وفي هذه الآيات الكريمة لفته إلى أن مجرد النسب الشريف لا ينفع صاحبه إذا لم يعمل عملا شريفا وإذا خالف سبيل المؤمنين وسلك سبيل المفسدين.

وقد ضرب الله تعالى قارون لكبراء مكة والطائف من المشركين الذين اغتروا بمالهم وأولادهم وجاههم وزعموا أنهم أحق بالنبوة من الرسول ﷺ.

﴿ وَقَالُوا لَوْلَا نُزِّلَ هَذَا الْقُرْآنُ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنَ الْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ (٣١) ﴾ [الزخرف]

وكان قارون حليفا لفرعون معينا له على بنى قومه الإسرائيليين ، ويسهل له فرعون سبل الكسب الحرام حتى جمع ثروة هائلة يعجز العصبة الأشداء من الرجال عن حمل مفاتيح كنوزها فما بالكم بالكنوز نفسها.

وقارون كان كافرا صريح الكفر وكان منافقا يقول رب العزة تبارك

وتعالى:

﴿ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ بِآيَاتِنَا وَسُلْطَانٍ مُّبِينٍ (٢٣) إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَهَامَانَ وَقَارُونَ فَقَالُوا سَاحِرٌ كَذَّابٌ (٢٤) فَلَمَّا جَاءَهُم بِالْحَقِّ مِنْ عِندِنَا قَالُوا اقْتُلُوا أَبْنَاءَ الَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ وَاسْتَحْيُوا نِسَاءَهُمْ وَمَا كَيْدُ الْكَافِرِينَ إِلاَّ فِي ضَلالٍ (٢٥) ﴾ [غافر]

وكان قارون وزيرا لفرعون فيما يخص شئون بنى إسرائيل، فجمع الأموال الطائلة (الكثيرة) ووضعها فى صناديق وجعل لكل صندوق مفتاحا، وجعل حراسا يحرسون المفاتيح فضلا عن حراس الخزائن .

قال تعالى :

﴿ وَآتَيْنَاهُ مِنَ الْكُنُوزِ مَا إِنَّ مَفَاتِحَهُ لَتَنُوءُ بِالْعُصْبَةِ أُولِي الْقُوَّةِ (٧٦) ﴾ [سورة القصص]، والعصبة من الرجال بين العشرة إلي الأربعين، وتنوء بهم أى تميلهم بثقلها

وكان قارون خائنا لقومه يقر فرعون على قتل مواليد بنى إسرائيل من الذكور ورغم أن بنى إسرائيل كانوا أهل كتاب وكان فرعون وثنيا كافرا مدعيا للألوهية.

بنى العزيز - بنيتى العزيزة:

إن الإنسان مهما جمع من أموال فإما أن يزول ماله أو يزول هو عن ماله بالموت بل لابد لكل حى من الموت فمن فضل الآخرة الباقية وجوار ربه

على الدنيا الفانية فقد فاز أما من طغى وآثر الحياة الدنيا فإن الجحيم هى المأوى.

وهاهى الآيات التى تروى قصة قارون تضع مبادئ وأسس لأصحاب الأموال كما سنعرضها عما قليل.

وهذه المبادئ فى قوله تعالى : ﴿لَا تَفْرَحْ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْفَرِحِينَ (٧٦)﴾ [القصص] وهو فرح الغرور والكبر.

والثانى : ﴿وَابْتَغِ فِيمَا آتَاكَ اللَّهُ الدَّارَ الْآخِرَةَ﴾ [القصص].

والثالث : ﴿وَلَا تَنسَ نَصِيبَكَ مِنَ الدُّنْيَا﴾ [القصص] أى لا تترك حركة الحياة والسعى لتحصيل المعاش والنفع الحلال باعتدال.

والرابع : ﴿وَأَحْسِن كَمَا أَحْسَنَ اللَّهُ إِلَيْكَ﴾ أى قابل إحسان الله بالإحسان فى العبادة والشكر ومواساة الفقراء فأنت مستخلف فى المال وهو وديعة صاحب المال.

والخامس : ﴿وَلَا تَبْغِ الْفَسَادَ فِي الْأَرْضِ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْمُفْسِدِينَ (٧٧)﴾ [القصص] ولا ينال ذلك إلا من أدعى الإيمان والحكمة وخشية الله.

وكلما وعظه موسى عليه السلام طالبه بتقوى الله وأداء الحقوق لله ولعباده المؤمنين قال : إنما أوتيته على علم عندى.

أى أوتيت هذا المال بجهدى وخبرتى بأساليب الكسب وجمع المال وذكائى وحيلتى فهو مالى أصنع به كما أشاء.

يقول تعالى :

﴿ أَوَ لَمْ يَعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ قَدْ أَهْلَكَ مِن قَبْلِهِ مِنَ الْقُرُونِ مَنْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُ قُوَّةً وَأَكْثَرُ جَمْعًا وَلا يُسْأَلُ عَن ذُنُوبِهِمُ الْمُجْرِمُونَ (٧٨) ﴾ [القصص]

فلما أصر على كبره وعناده وإفساده وغروره كان مصيره الهلال هو وما يملك.

يخرج قارون بزينته وعرباته وخيوله وخدمه وحشمه وعبيده وأعوانه وحليه وذهبه وفاخر ثيابه متزينا مترفعا متكبرا مستعرضا لقوته وأمواله ورجاله ونسائه وأملاكه.

وهنا يحسده من فتنته الدنيا وأعجبه حطامها الزائل ونعيمها الفانى واغتر بالأثاث والثياب والمواكب والزينات فيقولون مبهورين بعد خروجه على قومه في زينته.

﴿ فَخَرَجَ عَلَىٰ قَوْمِهِ فِي زِينَتِهِ قَالَ الَّذِينَ يُرِيدُونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا يَا لَيْتَ لَنَا مِثْلَ مَا أُوتِيَ قَارُونُ إِنَّهُ لَذُو حَظٍّ عَظِيمٍ (٧٩) وَقَالَ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ وَيْلَكُمْ ثَوَابُ اللَّهِ خَيْرٌ لِّمَنْ آمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا وَلا يُلَقَّاهَا إِلاَّ الصَّابِرُونَ (٨٠) فَخَسَفْنَا بِهِ وَبِدَارِهِ الأَرْضَ فَمَا كَانَ لَهُ مِن فِئَةٍ يَنصُرُونَهُ مِن دُونِ اللَّهِ وَمَا كَانَ مِنَ الْمُنتَصِرِينَ (٨١) وَأَصْبَحَ الَّذِينَ تَمَنَّوْا مَكَانَهُ بِالأَمْسِ يَقُولُونَ وَيْكَأَنَّ اللَّهَ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَن يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَيَقْدِرُ لَوْلا أَن مَّنَّ اللَّهُ عَلَيْنَا لَخَسَفَ بِنَا وَيْكَأَنَّهُ لا يُفْلِحُ الْكَافِرُونَ (٨٢) تِلْكَ الدَّارُ الآخِرَةُ نَجْعَلُهَا لِلَّذِينَ لا يُرِيدُونَ عُلُوًّا فِي الأَرْضِ وَلا فَسَادًا وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ (٨٣) ﴾ [القصص]

ولكن طلاب ثواب الله والعارفين بأسباب السعادة الحقيقية، لم يخدعهم هذه المظاهر البراقة فيحذرون طلاب الدنيا من الركون إليها .

وفى سرعة خاطفة كان قارون تحت الأرض يتجلجل فيها إلى يوم القيامة هو وموكبه وزينته وقصوره وأمواله، فقد دعا عليه موسى عليه السلام بالخسف .

وقد قيل أن قارون طعن موسى عليه السلام فى عرضه وحرض عليه امرأة ساقطة تتهمه فى شرفه.

وهنا عرف طلاب الدنيا أنه لا أمان لها وأن الآخرة خير وأبقى وأن عاقبة البغى وخيمه وأن الله يجعل العاقبة للمتقين وأن الدار الآخرة يجعلها الله تعالى للذين لا يريدون علوا في الأرض ولا فسادا وأن العقبى الحسنة والمآل (المرجع) الآمن يكون للمتقين.

إن الله تعالى يعطى الدنيا لمن يحب ومن لايحب ، ولا يعطى الآخرة إلا لمن أحب .

وهكذا كانت نهاية هذا الطاغية المتمرد قارون.

قصة النملة وهدهد

سليمان عليه السلام

ورث سليمان عليه السلام أباه داود عليه السلام فى الملك والعبادة، وذلك بأمر الله تعالى، وقد كان يشارك أباه فى شئون الحكم والحرب والقضاء وغير ذلك من الأعمال والمناصب، وتعلم منه شئون الحكم والسياسة والحرب وعلوم الدين وحفظ الزبور (الكتاب المنزل على داود عليه السلام).

وإذا كان الله تعالى قد أكرم داود عليه السلام بخصائص منها ترجيع الجبال والطير مع تسبيحه ومنحه الصوت الجميل وتعليمه صنعة الدروع والتفضل عليه بالعلم والحكمة وغير ذلك من المواهب والمنح. فقد منح الله تعالى لابنه سليمان من بعده النبوة والملك وعلمه لغة الطيور وسخر له الجن والريح، وأسال له عين النحاس وأنعم عليه بخوارق العادات ومنحه العلم والحكمة.

أبنائى الأعزاء:

ذكرت قصة سليمان عليه السلام فى سورة الأنبياء، وفى سورة النمل، وسورة سبأ وسورة ص وغيرها.

قال تعالى :

﴿ وَلَقَدْ آتَيْنَا دَاوُدَ وَسُلَيْمَانَ عِلْمًا وَقَالا الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي فَضَّلَنَا عَلَىٰ كَثِيـــــــرٍ مِّنْ عِبَادِهِ الْمُؤْمِنِينَ (١٥) وَوَرِثَ سُلَيْمَانُ دَاوُدَ وَقَالَ يَا أَيُّهَا النَّاسُ

عُلِّمْنَا مَنطِقَ الطَّيْرِ وَأُوتِينَا مِن كُلِّ شَيْءٍ إِنَّ هَذَا لَهُوَ الْفَضْلُ الْمُبِينُ (١٦) ﴾ [النمل]

سليمان عليه السلام والنملة :

قال تعالى :

﴿ وَحُشِرَ لِسُلَيْمَانَ جُنُودُهُ مِنَ الْجِنِّ وَالإِنسِ وَالطَّيْرِ فَهُمْ يُوزَعُونَ (١٧) حَتَّىٰ إِذَا أَتَوْا عَلَىٰ وَادِ النَّمْلِ قَالَتْ نَمْلَةٌ يَا أَيُّهَا النَّمْلُ ادْخُلُوا مَسَاكِنَكُمْ لا يَحْطِمَنَّكُمْ سُلَيْمَانُ وَجُنُودُهُ وَهُمْ لا يَشْعُرُونَ (١٨) فَتَبَسَّمَ ضَاحِكًا مِّن قَوْلِهَا وَقَالَ رَبِّ أَوْزِعْنِي أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ الَّتِي أَنْعَمْتَ عَلَيَّ وَعَلَىٰ وَالِدَيَّ وَأَنْ أَعْمَلَ صَالِحًا تَرْضَاهُ وَأَدْخِلْنِي بِرَحْمَتِكَ فِي عِبَادِكَ الصَّالِحِينَ (١٩) ﴾ [سورة النمل]

جمع سليمان عليه السلام جنوده للحرب من الجن والإنس والطير. وكان الجن يعملون له ما يأمرهم به من الأعمال التى تشق على البشر فينجزونها فى وقت قياسى أى فى سرعة هائلة كإنشاء المبانى والمرافق واستخراج اللؤلؤ والأحجار الكريمة من أعماق البحار وصنع أوانى الطعام الكبيرة التى يكفى طعامها للعدد الكبير وغير ذلك من الأعمال.

وكانت الطيور تظلل الجنود وتبحث عن أماكن الماء وتستطلع أخبار الأعداء ويحملون الرسائل إلي الملوك.

وقوله وهم يوزعون أن يدفعون لتنظيم الصفوف واستعداد كل منهم لأداء مهمته.

حتى إذا أتوا على واد النمل (قرية النمل) إذا بسليمان يسمع النملة الملكة لدولة النمل تخاطب جماعة النمل فتأمرهم أن يدخلوا مساكنهم على وجه السرعة لوقاية أنفسهم من خطر هذا الجيش الزاحف، فعلم سليمان أن النمل أمم ودول لها ملوك وعمال (شغالون) وجنود وخبراء استطلاع ومخازن التموين وغير ذلك من شئون الأمم والدول.

والعجب من أمر هذه النملة الملكة أن خطابها لشعبها كان فى غاية الفصاحة حيث نبهت وأمرت ، ونصحت وحذرت، وأفردت وجمعت وأعذرت وأنذرت ، وعللت ونادت وأرشدت وسمت ووصفت، وأعلنتهم أن سليمان وجنوده لا يحطمونهم قاصدين وإنما يحدث ذلك إذا حدث رغما عنهم دون شعور أو قصد منهم فكأنها وصفتهم بالرحمة والشفقة واللين والتقوى.

كل هذه المعانى الجليلة ضمنتها من خلال كلمات قليلة. وأيضا هذه العبارة تدل على حكمة الملكة وشفقتها برعيتها وتحرى مصالح شعبها.

استفاد سليمان عليه السلام من هذا الموقف بعد أن ضحك من قول النملة وشكر الله تعالى على وافر نعمه وجزيل عطائه.

فعلم سليمان درسا من هذه النملة بل دروسا. إذ تعلم التواضع لخلق الله والشكر له فليس هو وحده الملك ولكن هذه النملة ملكة وملكة حكيمة عالمة رحيمة تتقن فن السياسة والقيادة فى غاية اليقظة وتعلم أن هناك دولا وشعوبا وأمما من غير البشر من الحشرات وهى من أدنى المخلوقات. ولفت نظره إلى أن القوى قد يحطم الضعيف دون أن يشعر ودون أن يبالى. أيضا عرف أن هذه الكائنات الصغيرة تعرف خالقها وتعرف أنبيائه ورسله.

جاء سليمان من وادى النمل وقد تملكه العجب مما سمع ورأى. ولجأ إلى ربه يدعوه ويتضرع إليه أن يوفقه للقيام بشكر نعمته التى أنعمها عليه وعلى والديه ، وأن يوفقه لعمل الصالحات.

هل يدخل على سليمان عُجب وقد رأى للنملة سلطانا كسلطانه، ودولة كدولته وجندا كجنده، وأنها ترتاد مواقع الخير لرعيتها، وتدفع عنهم مواطن الشر وتحذرهم.

فليرع سليمان رعيته كما ترعى هذه النملة رعيتها وليجدوا عنده العطف والرحمة والحكمة والرشاد كمثل هذه النملة مع رعيتها.

هدهد سليمان

تفقد سليمان عليه السلام الطير، فوجد أن طائر الهدهد غير موجود، والهدهد كان مهمته البحث عن الماء لجنود سليمان، فيغضب سليمان ويتوعد بتعذيب الهدهد أو ذبحه إن لم يأته بحجة بينة مقنعة تكون سبباً للمعذوة.

يقول تعالى :

﴿ وَتَفَقَّدَ الطَّيْرَ فَقَالَ مَا لِيَ لا أَرَى الْهُدْهُدَ أَمْ كَانَ مِنَ الْغَائِبِينَ (٢٠)
لأُعَذِّبَنَّهُ عَذَابًا شَدِيدًا أَوْ لأَذْبَحَنَّهُ أَوْ لَيَأْتِيَنِّي بِسُلْطَانٍ مُّبِينٍ (٢١) فَمَكَثَ غَيْرَ
بَعِيدٍ فَقَالَ أَحَطتُ بِمَا لَمْ تُحِطْ بِهِ وَجِئْتُكَ مِن سَبَإٍ بِنَبَإٍ يَقِينٍ (٢٢) إِنِّي
وَجَدتُّ امْرَأَةً تَمْلِكُهُمْ وَأُوتِيَتْ مِن كُلِّ شَيْءٍ وَلَهَا عَرْشٌ عَظِيمٌ (٢٣)
وَجَدتُّهَا وَقَوْمَهَا يَسْجُدُونَ لِلشَّمْسِ مِن دُونِ اللَّهِ وَزَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ

أَعْمَالَهُمْ فَصَدَّهُمْ عَنِ السَّبِيلِ فَهُمْ لا يَهْتَدُونَ (٢٤) أَلاَّ يَسْجُدُوا لِلَّهِ الَّذِي يُخْرِجُ الْخَبْءَ فِي السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَيَعْلَمُ مَا تُخْفُونَ وَمَا تُعْلِنُونَ (٢٥) اللَّهُ لا إِلَهَ إِلاَّ هُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ (٢٦) ﴾ [النمل]

هذا الهدهد يتسم بالجرأة فى الحق والخشية من الله وحده يمكث قريبا من سليمان وهو يكلمه، فيقول فى ثقة وعزة نفس. أحطت بما لم تحط به أى عرفت ما لم تعرفه، وكأنه يلمح إلي صغره وضعفه بالقياس إلى قوة سليمان عليه السلام وسعة ملكه وتسخير الجن والإنس والطير والريح بين يديه.

قال : وجئتك من سبأ ، وهى قرية فى جنوب الجزيرة العربية باليمن ومعلوم أن دولة سليمان عليه السلام كانت فى فلسطين.

"أنبأ بخبر صادق مؤكد وأخذ يقص النبأ والناس تنظر فى عجب لهذا المشهد فالهدهد يحرك فمه ويفتح منقاره وسليمان عليه السلام يسمع منه ويفهم لغته.

"أنى وجدت امرأة تملكهم، وأوتيت من كل شئ يصلح للملك ولها عرش عظيم دلالة على عظم مملكتها وتقدم حضارتها وما وصلوا إليه من الرخاء والعمران واتساع الأرزاق ووفرة الثمار والحبوب وغير ذلك من الموارد والتقدم الاقتصادى والعمرانى والعلمى.

والذى أحزن الهدهد وحز فى نفسه ومزق قلبه كما قال. وجدتها وقومها يسجدون للشمس من دون الله".

فكيف يسجدون لمخلوق مهما عظم، وعلل ذلك بأن الشيطان قد أغواهم، وأفسد عليهم فطرتهم وزين لهم سوء عملهم وأدخلهم في هذا الشرك، وصدهم (صرفهم) عن الطريق المستقيم طريق الإيمان والتوحيد والإذعان لله تعالى بالطاعة، فهم لايهتدون إلى الله الذي خلقهم من العدم، ورباهم وأنعم عليهم بجزيل النعم التى لا تعد ولا تحصى. فهم فى حاجة إليك لتنتشلهم من هذا الكفر وتبين لهم طريق الإيمان وعواقب الكفران وأنت نبى الله والداعى إليه.

وكان أولى هؤلاء القوم الذين أنعم الله عليهم أن يسجدوا لله الذى يخرج الخبء فى السموات والأرض. أى يعلم المخبأ فى السموات والأرض ويعلم ما تخفون ما تعلنون، وهو الله الذى لا إله سواه ولا رب غيره، وهو ملك الملوك وصاحب العرش الأعظم.

وقد ألقى عليه الهدهد هذا الخبر العظيم بإيجاز وبلاغة وفصاحة قد لا يقدر عليها الحكماء والفصحاء من البشر.

فلقن الهدهد سليمان دروسا قيمة.

أن سليمان لم يدر بهؤلاء والذين بدلوا فطرهم وضلوا عن سواء السبيل وهو من هو فى الملك والنبوة.

وأن الهدهد يدرك قصة الألوهية والربوبية ويعلم نبوة سليمان ومن ه الذى يُعبد وحده ويسجد له ويطا ع.

وأن الله عالم الغيب، وأن من يدع علم الغيب كاذب إلا من أطلع الله تعالى على شئ من علم الغيب من رسول.

وأن الشيطان يكون وراء إفساد العقيدة واضلال الناس ، وحثهم على الفساد. فكأن الهدهد يصرح بعداوة الشيطان ويحث الناس على عداوته ونبذ طاعته والإخلاص لله تعالى رب كل شئ ومليكه.

كتب سليمان عليه السلام كتابا يدعو فيه ملكة سبأ وقومها للإيمان بالله تعالى وأن تأتى إليه مع أكابر دولتها مسلمين ، وأرسل الكتاب مع الهدهد، فهو أعرف بهم وبطريقهم، وهو هدهد حكيم ذكى يستطيع أن يلقى الرسالة بحيث تجدها الملكة فتقرأها وتعرضها على قومها ورجال دولتها، وهو يعرف أن يصف رد فعل هذه الرسالة وجواب المستشارين عليها وما ينوون فعله بعد قراءتها وقد كان.

وأراد سليمان أن يمتحن صدقه ويتثبت فلعل الهدهد قد أخطأ فيصيبهم بظلم، وربما وهم الهدهد أو قصر أو لعلها تكون مكيدة من الشيطان.

قال تعالى :

﴿ قَالَ سَنَنظُرُ أَصَدَقْتَ أَمْ كُنتَ مِنَ الْكَاذِبِينَ (٢٧) اذْهَب بِّكِتَابِي هَٰذَا فَأَلْقِهْ إِلَيْهِمْ ثُمَّ تَوَلَّ عَنْهُمْ فَانظُرْ مَاذَا يَرْجِعُونَ (٢٨) ﴾ [النمل]

وكان سليمان عليه السلام يميل إلى تصديق الهدهد ولكن أراد التثبيت وتعليم الناس كيف يتثبتوا ويدققوا ويتأكدوا من صدق الأخبار. ويكلم سليمان الهدهد بشئ من التنعيف فى مقابل جرأته عليه.

الهدهد يلقى الكتاب :

يذهب الهدهد بالكتاب متجها إلي طريق اليمن يسابق الريح طيرانا فى همة ونشاط حتى إذا وصل إلي شرفة مخدعها في قصرها ألقى الكتاب على سريرها بعد أن نفذ من نافذة الغرفة، ثم تنحى جانبا ليرقب ماذا تفعل الملكة ولعله أختبأ خلف الستائر.

عثرت الملكة على الكتاب الملقى على السرير فتعجبت لوجوده فى مخدعها دون أن يسلمه أحد أليها، وأخذت الكتاب تقرأها بلهفة وشغف وقد أخذها حب الاستطلاع كل مأخذ فلما قرأت الكتاب أعجبها أسلوبه المهذب، وكلماته القليلة التى تجمل المعانى الكثيرة ويدل أسلوبه على عظم مرسله وحكمته وفصاحته وأدبه مع مافى أسلوبه من جرأة مهذبة وثقة واعتداد بالنفس بعد أن افتتح بسم الله الرحمن الرحيم كدلالة على إيمان مرسل الكتاب وثقته بربه والعمل لوجهه الكريم.

وكانت الملكة عاقلة حكيمة خبيرة بشئون الحرب والسياسة وكانت لا تستبد برأيها، ولكنها تستشير رجال دولتها ومستشاريها ومساعديها قبل أن تتخذ القرار.

جمعت أهل الشورى وعرضت عليهم الكتاب ، وأخبرتهم أنها لا تقطع أمرا دونهم، اعترافا بفضلهم ومكانتهم لديها وتقربا لحثهم فى مشاركتها في إتخاذ القرارات المصيرية ولتحملهم المسئولية معها وفى هذا درس لكل من يتولى أمور الناس ويحكم فيهم.

سألها قومها عن صاحب الكتاب فأخبرتهم أن الكتاب من سليمان ووصفت الكتاب بأنه كريم وأنه يحمل أمرا بالخضوع للإيمان والإذعان لله بالعبودية والإتيان إلى سليمان طائعين وهم يعرفون سليمان ومدى قوته وسلطانه وقوة دولته، ولكنهم لما علموا بلهجة الكتاب الآمرة والتى تحمل تهديدا مستترا أخذتهم العزة بالإثم والعنجهية فأشاروا على الملكة بالتجهز للحرب والقتال، فراجعتهم فى مشورتهم وحذرتهم عواقب الحروب وما تجره من دماروخراب وإذلال أهل العز وما تجره من فقر وخراب وأخبرتهم أنها سترسل إليه بهدية لتنظر ماذا يكون رد الفعل لديه هل هو نبى حقا أم ملك يبغى المال وزيادة الوجاهة والجاه والسلطان.

﴿ قَالُوا نَحْنُ أُوْلُوا قُوَّةٍ وَأُوْلُوا بَأْسٍ شَدِيدٍ وَالأَمْرُ إِلَيْكِ فَانْظُرِي مَاذَا تَأْمُرِينَ (٣٣) قَالَتْ إِنَّ الْمُلُوكَ إِذَا دَخَلُوا قَرْيَةً أَفْسَدُوهَا وَجَعَلُوا أَعِزَّةَ أَهْلِهَا أَذِلَّةً وَكَذَلِكَ يَفْعَلُونَ (٣٤) وَإِنِّي مُرْسِلَةٌ إِلَيْهِم بِهَدِيَّةٍ فَنَاظِرَةٌ بِمَ يَرْجِعُ الْمُرْسَلُونَ (٣٥) ﴾ [النمل]

إن أمور الحرب والتسرع فيها لا يحمد عقباه ولابد من استخدام الحيلة والاستطلاع وتقليب الرأى من كل الوجوه، والتسرع من شأنه أن يهلك الحرث (الزرع) والنسل.

أرسلت الملكة بلقيس هدية عظيمة إلي سليمان عليه السلام- هدية تليق بالمهدى والمهدى إليه هدية من ملكة ودولة قوية إلي ملك كريم ودولة لها شأن وهيبة.

ولعلها بهذه الهدية أرادت أن تختبر سليمان فإذا قبلها فهو مجرد ملك وإذا ردها فهو نبى والأمر لا هوادة فيه ولا تهاون أو لعله إن قبل الهدية أن تصالحه وتتقى شر الحرب .

موقف سليمان عليه السلام من الهدية :

﴿ فَلَمَّا جَاءَ سُلَيْمَانَ قَالَ أَتُمِدُّونَنِ بِمَالٍ فَمَا آتَانِيَ اللَّهُ خَيْرٌ مِّمَّا آتَاكُم بَلْ أَنتُم بِهَدِيَّتِكُمْ تَفْرَحُونَ (٣٦) ارْجِعْ إِلَيْهِمْ فَلَنَأْتِيَنَّهُم بِجُنُودٍ لاَّ قِبَلَ لَهُم بِهَا وَلَنُخْرِجَنَّهُم مِّنْهَا أَذِلَّةً وَهُمْ صَاغِرُونَ (٣٧) قَالَ يَا أَيُّهَا الْمَلأُ أَيُّكُمْ يَأْتِينِي بِعَرْشِهَا قَبْلَ أَن يَأْتُونِي مُسْلِمِينَ (٣٨) قَالَ عِفْرِيتٌ مِّنَ الْجِنِّ أَنَا آتِيكَ بِهِ قَبْلَ أَن تَقُومَ مِن مَّقَامِكَ وَإِنِّي عَلَيْهِ لَقَوِيٌّ أَمِينٌ (٣٩) قَالَ الَّذِي عِندَهُ عِلْمٌ مِّنَ الْكِتَابِ أَنَا آتِيكَ بِهِ قَبْلَ أَن يَرْتَدَّ إِلَيْكَ طَرْفُكَ فَلَمَّا رَآهُ مُسْتَقِرًّا عِندَهُ قَالَ هَذَا مِن فَضْلِ رَبِّي لِيَبْلُوَنِي أَأَشْكُرُ أَمْ أَكْفُرُ وَمَن شَكَرَ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِ وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ رَبِّي غَنِيٌّ كَرِيمٌ (٤٠) قَالَ نَكِّرُوا لَهَا عَرْشَهَا نَنظُرْ أَتَهْتَدِي أَمْ تَكُونُ مِنَ الَّذِينَ لا يَهْتَدُونَ (٤١) فَلَمَّا جَاءَتْ قِيلَ أَهَكَذَا عَرْشُكِ قَالَتْ كَأَنَّهُ هُوَ وَأُوتِينَا الْعِلْمَ مِن قَبْلِهَا وَكُنَّا مُسْلِمِينَ (٤٢) وَصَدَّهَا مَا كَانَت تَّعْبُدُ مِن دُونِ اللَّهِ إِنَّهَا كَانَتْ مِن قَوْمٍ كَافِرِينَ (٤٣) قِيلَ لَهَا ادْخُلِي الصَّرْحَ فَلَمَّا رَأَتْهُ حَسِبَتْهُ لُجَّةً وَكَشَفَتْ عَن سَاقَيْهَا قَالَ إِنَّهُ صَرْحٌ مُّمَرَّدٌ مِّن قَوَارِيرَ قَالَتْ رَبِّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي وَأَسْلَمْتُ مَعَ سُلَيْمَانَ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ (٤٤) ﴾ [النمل]

غضب سليمان عليه السلام لارسال الهدية إليه فكيف يقبل الهدية والقوم لم يعلنوا إسلامهم، ويريدون أن يكون لهم عليه منه ولهم عنده يد

(معروف) ليتغاضى عن دعوته، فرد إليهم الهدية وهددهم بإرسال جنود إليهم لا طاقة لهم بها، وأنه عازم عزماً مؤكدا على إخراجهم من بلادهم أذلة صاغرين، فلما وصل إليها سفراؤها علمت أن الأمر جد خطير وأنه جد لا هزل فيه وأن الخطر محدق بها وبشعبها فآثرت السلام وأذعنت لداعى الحق.

احضار عرش بلقيس:

علم سليمان بأن ملكة سبأ فى طريقها إليه، فاستشار الملأ من قومه فى إحضار عرشها قبل أن تأتى مع رجال دولتها مسلمين، وطلب إحضار العرش بسرعة خاطفة قبل وصولهم فقام عفريت من الجن فعرض أن يأتى بالعرش قبل أنتهاء سليمان من عمل يومه، وقال رجل أتاه الله علما من الكتاب. أنا آتيك به قبل أن يرتد إليك بصرك. أى قبل أن تغمض عينيك وتفتحها أى قبل أقل من الثانية. وما أن يفرغ الرجل من كلامه حتى وجد سليمان عليه السلام العرش أمامه فلما رآه مستقرا عنده، علم أن هذا اختبار من الله تعالى فتواضع لعظمته ولهج لسانه وقلبه بشكر ربه سبحانه وتعالى وهو قد عرف بالشكر وأبوه من قبل كان شاكرا لله مقرا بنعمه عليه.

قال المفسرون أن الذى أتى بالعرش وكان عرضه أفضل وأسرع مما عرضه العفريت والعفريت هو من بلغ قوة هائلة من الجن . ومعلوم أن الجن سريعو الحركة يطيرون بسرعة الصوت ويقطعون المسافات الهائلة فى دقائق معدودة.

قال المفسرون أن الذي أتى بالعرش هو وزير سليمان آصف بن برخيا وقال أخرون إنه جبريل عليه السلام وقال آخرون إنه سليمان نفسه أراد أن يعلم الجن أنه أقوى منهم بربه سبحانه وتعالى.

وهناك تفسير حديث قائم على بعض العلوم الكونية هذا التفسير يقول إن الذى أتى بعرش بلقيس رجل كان لديه العلم بكيفية تحويل المادة إلى طاقة وإعادة تحويل الطاقة إلى مادة أى تحويل المادة المكونة من المعادن أو غيرها إلى غاز وأشعة وإعادة تحويل هذه الطاقة إلى صورتها المادية السابقة دون أن تتفرق المادة وتتشتت فى الهواء وتنفلت. وأن هذه العملية تتم فى أقل من الثانية. فالله سبحانه وتعالى أعلى وأعلم.

فى مواجهة ملكة سبأ:

أراد سليمان عليه السلام أن يرى الملكة آية من آيات الله الدالة على وحدانيته وعظيم قدرته ، لتؤمن بالله على بينة وحجة من قلبها وعقلها.

وأمر سليمان بعض أتباعه أن يغيروا فى هيئة العرش قال نكّروا لها عرشها لنختبر ذكاءها ونرى رد فعلها عندما ترى عرشها وقد حدث به بعض التغيير أتعرفه أم لا.

ولما جاءت إلى سليمان ونظرت إلي عرشها قيل لها : أهكذا عرشك أى هل عرشك مثل هذا؟ ، فقالت : كأنه هو فأحتاطت للأمر لئلا تبدو كاذبة، وجاهلة فلو قالت هو فربما كان غيره ولو قالت ليس هو فربما كان هو.

ولما دعاها سليمان إلى دخول الصرح الذى يجلس فيه وكان هذا الصرح لجة من الماء (بئر ماء) فكشفت عن ساقيها، فكشفت عن ارتباكها وضعفها أمام سليمان وظهر تفوقه عليها، قال : لا بأس عليك، أنه صرح ممهد من قوارير مملوء بالماء، يخيل للناظر أنها ماء لنقاوة الزجاج وشفافيته ورقته. فأعلنت إسلامها مع سليمان، وندمت وتابت عن عبادة غير الله تعالى. وهى مع عقلها وحكمتها وخبرتها وسياستها كانت قد وقعت فى الشرك من تأثير البيئة الفاسدة التى درجت على الشرك فتأثرت بهذه البيئة فلما ذهب الران (السواد) عن قلبها وجلى الصدأ الذى كان يخيم على عقلها ثاب لرشدها فأذعنت للإيمان.

وكانت هذه المرأة الحكيمة سببا فى إسلام شعبها وإيمان أمتها فكانت مفتاحا للخير ،والفضل على قومها. والرسول ﷺ يقول : "لئن يهدى الله بك رجلا واحدا خير لك من حُر النعم " وفى رواية أخرى خير له من الدنيا وما فيها.

وقولها وأوتينا العلم من قبلها وكنا مسلمين فهذا من كلامها أى أوتينا الإيمان من قبل أن نرى معجزة نقل العرش وكان ذلك وهى فى الطريق إلى سليمان عليه السلام.

وقيل إن سليمان عليه السلام قد تزوج من بلقيس بعد أن أسلمت فكيف لا وهو ملك وهى ملكة وقد أسلمت وأذعنت وحضرت إليه طائعة وكانت سببا فى هداية قومها ومن معها فحق لها أن تنعم بجواره وتشاركه حياته.

معجزات أخرى لسليمان عليه السلام:

من المعجزات التى أيد الله بها نبيه سليمان بن داود عليهما السلام غير معجزة احضار العرش ومعجزة تسخير الطير وتسخير الريح تجرى بأمره يطلقه حيث يشاء.

قال تعالى:

﴿ وَلِسُلَيْمَانَ الرِّيحَ عَاصِفَةً تَجْرِي بِأَمْرِهِ إِلَى الأَرْضِ الَّتِي بَارَكْنَا فِيهَا وَكُنَّا بِكُلِّ شَيْءٍ عَالِمِينَ (٨١) ﴾ [الأنبياء]

وقال تعالى: ﴿ فَسَخَّرْنَا لَهُ الرِّيحَ تَجْرِي بِأَمْرِهِ رُخَاءً حَيْثُ أَصَابَ (٣٦) ﴾ [سورة ص]

وقال تعالى:

﴿ وَلِسُلَيْمَانَ الرِّيحَ غُدُوُّهَا شَهْرٌ وَرَوَاحُهَا شَهْرٌ وَأَسَلْنَا لَهُ عَيْنَ الْقِطْرِ وَمِنَ الْجِنِّ مَن يَعْمَلُ بَيْنَ يَدَيْهِ بِإِذْنِ رَبِّهِ وَمَن يَزِغْ مِنْهُمْ عَنْ أَمْرِنَا نُذِقْهُ مِنْ عَذَابِ السَّعِيرِ (١٢) ﴾ [سبأ]

وتسخير الريح من أعظم النعم التى لم تعط لأحد قبل سليمان ولن تعطى لأحد بعده ولم يرث أحد مثل ملك سليمان ولا يكون ذلك لأحد بعده كما حكى القرآن. قال رب اغفر لى وهب لى ملكا لاينبغى لأحد من بعدى. وتسخير الريح قد أعطته قوة هائلة استخدمها فى الدعوة إلى الله تعالى وهداية الناس بعون الله وتوفيقه. وهذه الريح من عجائب صنع الله تعالى.

ريح يمتطيها كما يمتطى الخيول أو المراكب فيوجهها كيف شاء إلى الوجهة التى يبتغيها وعليها جنوده من الإنس والجن والطير فليس لها مثال قبله ولا بعده.

روى ابن كثير عن الحسن البصرى رحمهما الله تعالى : كان يغدو على بساطه من دمشق وينزل باصطخر يتغدى بها، ويذهب رائحا من اصطخر فيبيت بكابل، وبين دمشق واصطخر شهر كامل للمسرع، وبين اصطخر وكابل شهر كامل للمسرع.

وفاته عليه السلام:

قال تعالى :

﴿ فَلَمَّا قَضَيْنَا عَلَيْهِ الْمَوْتَ مَا دَلَّهُمْ عَلَىٰ مَوْتِهِ إِلاَّ دَابَّةُ الأَرْضِ تَأْكُلُ مِنسَأَتَهُ فَلَمَّا خَرَّ تَبَيَّنَتِ الْجِنُّ أَن لَّوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ الْغَيْبَ مَا لَبِثُوا فِي الْعَذَابِ الْمُهِينِ (١٤) ﴾ [سبأ]

بينما سليمان عليه السلام واقف فى محرابه ببيت المقدس يرقب العمال من الجن قضى عليه الموت وهو متكئ على عصاه فلم يعلم الجن بموته إلا بعد أن أكلت الأرضة عصاه فخر على الأرض حينئذ وفروا على أنفسهم الجهد الذى كانوا يبذلونه خوفا من سليمان. وكانوا يفخرون على الإنس بسرعة سيرهم وطيرانهم وتخفيهم وحملهم للأثقال ويزعمون معرفة الغيب فيظهر عجزهم عن معرفة الغيب وإلا ما لبثوا فى العذاب المهين وهم يظنون حياة سليمان.

سيل العرم

كانت دولة سبأ باليمن ذات حضارة ، وكان أهلها ذوى مهارة وعزم ، فشيدوا القصور الشامخة ، والجسور القوية والسدود العظيمة .

وفاضت البلاد بالخيرات والبركات ، وانتشر الخصب فى ربوع الوديان ، وعلى سفوح الجبال ، وطابت الحياة وكثرت الأشجار وتنوعت الثمار . وتقلّب الناس فى أعطاف النعيم حيناً من الزمن حتى جاءهم سيل العرم ، فتبدل رغد عيشهم ضنكاً .

تعالى معى نعرف السبب :

كانت البلاد خالية من الأنهار ، وكان الجدب يكتسح تربتها شهوراً ذات عددٍ حتى يأتى القطر من السماء ، وابلا منهمراً . وينحدر هذا السيل من قمم الجبال ، ويمضى ثائراً يحتمل الزبد ، ويحمل الطمى ، ويصب فى الصحراء ، فتبتلعه الأرض ، وتخضر مدة ، ثم يعود الجدب من جديد .

وفكر أولى النهى وأصحاب الرأى فى وسيلة للانتفاع من هذا الوابل الصيب، فحسبوا الأيام التى يأتى فيها المطر البلاد من كل عام ودرسوا طبيعة الأرض ، وجغرافيا المكان . فهداهم الله إلى إنشاء الحواجز السدود، يقيمونها بين الجبال والوديان، لحجز السيول وحفظ المياه ، ثم تصريفها إلى الأرض فى قنوات وترع .

وعملوا نظاما دقيقا ، وهندسة للرى رائعة ، ونجحت هذه السدود فى الانتفاع من المياه ، فأكثروا منها فى البلاد .

وكان أعظم هذه السدود وأمتنها هو سد يقع بين جبلين عظيمين ، ويمتد فى نهايته واد فسيح، ومدينة جميلة وكان يسمى «سدُّ مأرب» .

ونمت الزروع بفضل وفرة المياه ، وانتشرت الحدائق ، وتدلت الثمار من أغصانها تكاد تلامس الأرض ، وتقبل الثرى .

وكانت المرأة تسير بين الأشجار تحمل مكتلها (قُفَّتها) فوق رأسها فيمتلئ ويفيض من الثمر المتساقط دون عناء .

وفاض الخير ، وزاد النعيم ، وازدهرت الزراعة واشتغل بعض الناس بالتجارة . وكانوا يرحلون بتجارتهم إلى بلاد الحجاز والشام ويسيرون ليالى وأياما آمنين . وجعل الله لهم فى الطريق الطويل قرى ظاهرة يمرون عليها ، فيجدون فيها الأمان والراحة .

كانت نعما سابغة تستحق شكر الله عليها ، لكن أهل البلد جحدوا النعمة ، وبالغوا فى الأثرة ونسوا ربهم فأنساهم أنفسهم ، وقالوا : ربنا باعد بين أسفارنا .

وجاء سيل العرم هائلا على غير عادته من كل عام ، فاكتسح فى طريقه كل شئ ، وقوضت البناء ، وتهدم السد العظيم ... سد مأرب .

فتدفقت المياه فى الشعاب واكتسح الفيضان الحقول ، فأغرق الزرع وأهلك الضرع . وعم الخراب.

وسرعان ما غاضت المياه ، ابتلعتها الرمال ، وأصبح الوادى الخصيب مجدباً قفراً ، لا زرع إلا الشوك ، والأثل ، وشئ من سدر قليل.

وأصاب الناس هم وغم ، وانتشر الفقر فنزحوا عن الديار وتشتتوا فى البلاد بحثاً عن لقمة العيش .

وجعلهم الله أحاديثاً سائرة ، وعبرة لغيرهم وكان هذا جزاء كفرهم النعمة :

قال الله فيهم : ﴿ لَقَدْ كَانَ لِسَبَأٍ فِي مَسْكَنِهِمْ آيَةٌ جَنَّتَانِ عَن يَمِينٍ وَشِمَالٍ كُلُوا مِن رِّزْقِ رَبِّكُمْ وَاشْكُرُوا لَهُ بَلْدَةٌ طَيِّبَةٌ وَرَبٌّ غَفُورٌ (١٥) فَأَعْرَضُوا فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ سَيْلَ الْعَرِمِ وَبَدَّلْنَاهُم بِجَنَّتَيْهِمْ جَنَّتَيْنِ ذَوَاتَيْ أُكُلٍ خَمْطٍ وَأَثْلٍ وَشَيْءٍ مِّن سِدْرٍ قَلِيلٍ (١٦) ذَلِكَ جَزَيْنَاهُم بِمَا كَفَرُوا وَهَلْ نُجَازِي إِلاَّ الْكَفُورَ (١٧) وَجَعَلْنَا بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ الْقُرَى الَّتِي بَارَكْنَا فِيهَا قُرًى ظَاهِرَةً وَقَدَّرْنَا فِيهَا السَّيْرَ سِيرُوا فِيهَا لَيَالِيَ وَأَيَّامًا آمِنِينَ (١٨) فَقَالُوا رَبَّنَا بَاعِدْ بَيْنَ أَسْفَارِنَا وَظَلَمُوا أَنفُسَهُمْ فَجَعَلْنَاهُمْ أَحَادِيثَ وَمَزَّقْنَاهُمْ كُلَّ مُمَزَّقٍ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ (١٩) ﴾ [سبأ]

قصة لقمان

كان لقمان رجلا صالحا ورد خبره في القرآن الكريم في سورة تسمى باسمه وهى سورة لقمان. تروى هذه السورة بعضا من حكم لقمان ونصائحه لابنه لنعتبر بها.

نسبه وصفته :

اختلف المفسرون ورواة السير والتاريخ والأخبار فى نسب لقمان ومكانه وزمانه وهل كان نبيا أم رجلا صالحاحكيما، وهل هو من بنى إسرائيل، أم من غيرهم؟

والحكمة نعمة عظيمة، وكل نبى قد أتاه الله الحكمة ضمن ما أتاه من نعم والحكمة مأخوذة من الحكمة وهى شكيمة الجواد أى مقود الجواد.

والحكيم هو الذى يضع الكلام فى موضعه المناسب ويفعل الفعل فى مكانه المناسب وهو الذى يستخلص العظة والعبرة من المواقف ويحث على مكارم الأخلاق والزهد فى الدنيا وفعل الصلاح وترك الفساد معتبرا بما يرى وبما يسمع. والحكمة تطلق أيضا على القرآن «يس والقرآن الحكيم» وتطلق على السنة ﴿ **واذكرن ما يتلى فى بيوتكن من آيات الله والحكمة** ﴾ [الأحزاب]

والقرآن الحكيم لم يصرح بأن لقمان كان نبياً ولم ينف أيضا أنه نبى، ولا يمنع ذلك أن يكون لقمان نبيا قال تعالى : ﴿ **وقتل داود جالوت وآتاه الله الملك والحكمة** ﴾ والحكمة هنا بمعنى النبوة.

والحكمة التى أوتيها لقمان عليه السلام حكمة لدينه من عند الله تعالى وليست من الحكمة المكتسبة، مثل الرسالة والنبوة، اللذين لا يكتسبان وبعض المفسرين يقول إنه كان فى زمن داود عليه السلام، وبعضهم يقول: إنه كان ابن أخت أيوب عليه السلام أو ابن خالته، وذكر بعضهم أنه كان عبدا فأعتقه سيده، وذكر ابن كثير عن مجاهد أن لقمان كان قاضيا فى بنى إسرائيل. وقيل كان راعيا للغنم، وقيل كان نجارا وقيل كان خياطا.

وقيل إن قريشا سألوا رسول الله ﷺ عن لقمان عليه السلام، فأنزل الله فى شأنه قرآنا يتلى.

حكمته ووصاياه :

قال تعالى : ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا لُقْمَانَ الْحِكْمَةَ أَنِ اشْكُرْ لِلَّهِ وَمَن يَشْكُرْ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِ وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ حَمِيدٌ (١٢)﴾ [سورة لقمان]

وأعظم الحكمة شكر الله تعالى لأن الشاكر لله يضع الأشياء فى مواضعها ويرد الأفضال إلى صاحبها ومعطيها وهو الله سبحانه وتعالى، والشكر ضده الكفر لأن الكافر يغطى عقله عن التدبر في فضل الله ونعمه بل فى وجوده وصفاته عز وجل. فلا يشكر ربه بل يجحد نعمه.

قال تعالى : ﴿فَاذْكُرُونِي أَذْكُرْكُمْ وَاشْكُرُوا لِي وَلَا تَكْفُرُونِ (١٥٢)﴾ [البقرة]

وقال عز وجل : ﴿وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكُمْ لَئِن شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ وَلَئِن كَفَرْتُمْ إِنَّ عَذَابِي لَشَدِيدٌ (٧)﴾ [إبراهيم]

وقال سبحانه وتعالى : ﴿ ومن يشكر فإنما يشكر لنفسه ﴾.

أى أن الله تعالى غنى عن عباده وأن شكرهم عائد إليهم فى صورة زيادة النعم والبركة فيها والمحافظة عليها وجزيل الثواب عنها في الآخرة، فالله تعالى مع استغنائه عن خلقه وفقرهم إليه يثيبهم على طاعته ويشكر لهم كفهم عن معصيته يقول تعالى :

إن الله اشترى من المؤمنين أنفسهم وأموالهم بأن لهم الجنة. الآية. ويخلد ربنا تبارك وتعالى ذكر لقمان الحكيم الشاكر والعبد الصالح فيقول عز وجل :

﴿ وَإِذْ قَالَ لُقْمَانُ لابْنِه وَهُوَ يَعِظُهُ يَا بُنَيَّ لا تُشْرِكْ بِاللَّهِ إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ (١٣) وَوَصَّيْنَا الإِنسَانَ بِوَالِدَيْهِ حَمَلَتْهُ أُمُّهُ وَهْنًا عَلَىٰ وَهْنٍ وَفِصَالُهُ فِي عَامَيْنِ أَنِ اشْكُرْ لِي وَلِوَالِدَيْكَ إِلَيَّ الْمَصِيرُ (١٤) وَإِن جَاهَدَاكَ عَلَىٰ أَن تُشْرِكَ بِي مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ فَلا تُطِعْهُمَا وَصَاحِبْهُمَا فِي الدُّنْيَا مَعْرُوفًا وَاتَّبِعْ سَبِيلَ مَنْ أَنَابَ إِلَيَّ ثُمَّ إِلَيَّ مَرْجِعُكُمْ فَأُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ (١٥) يَا بُنَيَّ إِنَّهَا إِن تَكُ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِّنْ خَرْدَلٍ فَتَكُن فِي صَخْرَةٍ أَوْ فِي السَّمَوَاتِ أَوْ فِي الأَرْضِ يَأْتِ بِهَا اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ لَطِيفٌ خَبِيرٌ (١٦) يَا بُنَيَّ أَقِمِ الصَّلاةَ وَأْمُرْ بِالْمَعْرُوفِ وَانْهَ عَنِ الْمُنكَرِ وَاصْبِرْ عَلَىٰ مَا أَصَابَكَ إِنَّ ذَلِكَ مِنْ عَزْمِ الأُمُورِ (١٧) وَلا تُصَعِّرْ خَدَّكَ لِلنَّاسِ وَلا تَمْشِ فِي الأَرْضِ مَرَحًا إِنَّ اللَّهَ لا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ (١٨) وَاقْصِدْ فِي مَشْيِكَ وَاغْضُضْ مِن صَوْتِكَ إِنَّ أَنكَرَ الأَصْوَاتِ لَصَوْتُ الْحَمِيرِ (١٩) ﴾ [لقمان]

هذه الوصية جامعة لصفات الخير أسداها لقمان لولده فهو أحق الناس بنصيحته ووعظه وقد بدأ الوصية بأعظم شئ يترتب على العمل به سعادة الدنيا والآخرة وهو أخطر شئ وهو العقيدة عقيدة التوحيد فبدون هذه العقيدة يكون العمل هباء منثورا لايقبل منه شئ.

بدأ لقمان نهى ابنه عن الشرك بالله، وأخبره أن الشرك ظلم عظيم إذ أن العاصى إذا لم يتب فهو فى مشيئة الله إن شاء عذبه وإن شاء عفا عنه إلا الشرك فإن من قابل الله تعالى بالشرك ولم يتب منه فإن الله تعالى لا يعفو عنه مطلقا بل يجعل مصيره فى الآخرة الخلود فى النار. وإن الكافر والمشرك إذا تابا فى الدنيا من الكفر والشرك تاب الله عليهما.

ثم يوصينا الله تعالى بطاعة الوالدين باعتبارها أهم شئ بعد عبادته وتوحيده لأن الوالدين هما السبب المباشر لوجود الإنسان فى هذه الحياة والله تعالى هو واهب الحياة، وكما أن الله تعالى واهب النعم كلها فإن الوالدين هما سبب الكثير من النعم أجراها الله تعالى على يديهما.

أبنائى الأعزاء:

الوالد هو الذى وضع بذرة أولاده وهو الذى ينفق عليهم ويعلمهم ويربيهم ويوجههم ويعدهم ليكونوا رجالا ونساء يتحملون المسئولية فى الحياة والأم هى التى تحمل وتضع وترضع وتطعم وتسقى وتسهر وتخدم أولادها وتمرضهم وتغذوهم بحنانها.

ولذلك أمر الله تعالى الإنسان أن يشكره ويشكر والديه اللذين بياه صغيرا ورعياه كبيرا حتى بلغ مبلغ الشباب فوجب عليه أن يرعاهما في

كبرهما وأن يرحمهما ويدعو لهما كما ربياه صغيرا مع العلم بأنه لا طاعة لمخلوق فى معصية الخالق فلو كان الأبوان كافرين وأمرا ولدهما بالشرك فلا يطعهما لأن الشرك ظلم عظيم ولأن حق الله تعالى مقدم على حقوق الوالدين ولأن الحق أحق أن يتبع. ومع ذلك أمر الله تعالى بمصاحبة الوالدين الكافرين بالمعروف والإحسان إليهما.

بنى العزيز:

أرأيت كيف أن الله تعالى إله حكيم ورب رحيم ينصف أعداءه وينهى المؤمنين عن ظلم أعداءه الكافرين فياليت الناس يتعظون بذلك. ويذكر الله تعالى الإنسان بأمه على وجه الخصوص لشدة معاناتها فى حمله وولادته وإرضاعه، ولضعفها، ولأن الولد لم يدرك هذه الأمور ولم يشاهدها وهو مدرك ولكنه أدرك وهو يرى أباه يعطيه ويمنحه المال والملبس وكافة ما يطلبه وما يحتاجه.

ويغرس لقمان فى ولده الإيمان فيخبره أن الله تعالى لا يخفى عليه شئ فى الأرض ولا فى السماء وإن كان مثقال ذرة. ويقدر على الإتيان بها بذاتها من بين الذرات والخفيات يعلم ما لطف وما حق وما قيل وما صغر وما كبر وما تحرك وما سكن. وهو سبحانه وتعالى يعلم عدد أوراق الأشجار وعدد قطرات الأمطار.

ولما كانت الصلاة أهم ركن من أركان الإسلام بعد شهادة أن لا إله إلا الله وهى صلة بين العبد وربه وهم أهم العبادات وأخطرها شأنًا يتجلى فيها خضوع العبد لربه وشكره إياه وتلقى المدد والفيوضات الربانية وهى

أول ما يحاسب عنه العبد يوم القيامة وإنها إن صلحت صلح العمل كله وإن فسدت فسد العمل كله.

وقد بلغ من خطورتها وعظيم شأنها أن الله تعالى فرضها على رسوله محمد ﷺ وعلى المؤمنين مباشرة من فوق سبع سموات بغير واسطة ملك ليلة الإسراء والمعراج وهى من أعظم مكفرات الذنوب.

لذلك أمر لقمان بها ولده وحثه على إقامتها ثم أراد ذلك بالأمر بالمعروف والنهى عن المنكر وأمره بالصبر على ما أصابه لأن الأمر بالمعروف والناهى عن المنكر لابد أن يتعرض للمتاعب لأن ذلك أمر ثقيل على الناس ويتطلب الصبر والإخلاص واليقين والحكمة، ،وقال له إن ذلك من عزم الأمور أى من الواجبات العظام الواجبة التنفيذ بلا إبطاء.

ثم ينصح لقمان ولده بالتواضع والحلم، وترك العجب والخيلاء، فيقول ولا تصعر خدك للناس ، أى لا تخاطبهم وأنت معرض عنهم تكبرا وتعاليا كما يفعل المتكبر الذى يميل نجده عمن يحتقره، وقد يعطيه ظهره.

ومن لوازم الكبر المرح، أى الغرور والعجب قال : ﴿**ولا تمش فى الأرض مرحا إنك لن تخرق الأرض ولن تبلغ الجبال**﴾ أى يبغضه يلعنه، لأنه تكبر وتعاظم على الناس وليس له ذلك لأن الكبر والعظمة لله وحده رب كل شيئ ومليكه والإنسان خلق من ماء مهين ونزل من مجرى البول مرتين، وأن كل ما يتعاظم به المتكبرون ويختالون هو من نعم الله تعالى موهوب لهم ملك لله تعالى يسلبه منهم عند مماتهم ويقبرهم ويرقدهم فى التراب والظلام دون أنيس ولا نصير إلا من رحمه الله.

وختم لقمان عليه السلام وصاياه لابنه بالاعتدال فى المشى وحسن معاملة الناس والغض من الصوت تواضعا وتأدبا فإن رفع الصوت بلا دا ع من صفات الحمقى.

و صايا لقمان في غير القرآن

بنى العزيز - بنيتى العزيزة:

جاءت قصة لقمان عليه السلام ووصاياه لابنه وحكمه التى كان يلقيها فى كثير من كتب السير والتاريخ وتفاسير القرآن لابن كثير وابن جرير وغيرهما من المفسرين.

ومن هذه الوصايا:

١- يا بنى إذا أردت أن تؤاخى رجلا فاغضبه قبل ذلك، فإن أنصفك عند غضبه وإلا فاحذره.

٢- لتكن كلمتك طيبة ، وليكن وجهك بسطا، تكن أحب إلى الناس ممن يعطيهم.

٣- يا بنى لا تجالس الفجار ولا تماشهم، أثق أن ينزل عليهم عذاب من السماء فيصيبك معهم، وجالس العلماء وماشهم عسى أن تنزل عليهم رحمة فتصيبك معهم.

٤- وقال : ليس غنى كصحة، ولا نعمة كطيب نفس.

٥- يا بنى جالس العلماء وزاحمهم بركبتك، فإن الله يحيى القلوب بنور

العلم كما يحيى الأرض الميتة بوابل السماء.

٦- يا بنى إذا امتلأت المعدة نامت الفكرة، وخرست الحكمة ، وقعدت الأعضاء عن العبادة.

٧- قيل للقمان : أى الناس شر؟ فقال : الذي لا يبالي أن يراه الناس محسنا أو مسيئا .

٨- وأوصاه رجل أن يذبح شاة ويأتيه بأطيب مضغتين، فأتاه باللسان والقلب، ثم طلب أن يذبح أخرى وأن يلقى منها أحب مضغتين، فألقي اللسان والقلب ، فسأله عن ذلك فقال : هما أطيب ما فيها إذا طابا، وأخبث مافيها إذا خبثا .

٩- وقال : من كان له فى نفسه واعظ كان له من الله عز وجل حافظ، ومن أنصف الناس من نفسه زاده الله تعالى بذلك عزا ، والذل فى طاعة الله تعالى أقرب من التعزز بالمعصية.

١٠- وقوله : ضرب الوالد لولده كالسماء للزرع.

١١- وقوله لابنه: لا يأكل طعامك إلا الاتقياء وشاور فى أمرك العلماء.

١٢- يابنى لا تكن حلوا فتبلع، ولا تكن مرا فتلفظ.

١٣- قيل للقمان: ما بلغ بك ما ترى - يريدون الفضل - فقال : صدق الحديث، وأراء الأمانة، وترك مالا يعنينى.

١٤- يا بنى كن كمن لا يبتغى محمدة الناس ولا يكسب ذمهم، فنفسه منه فى عناء، والناس منه فى راحة.

١٥- يا بنى لا تأكل شبعا على شبع فإن القاءك إياه للكلب خير من أن تأكله.

١٦- يا بنى احضر الجنائز ولا تحضر العرس، فإن الجنائز تذكرك الآخرة، والعرس يشهيك الدنيا.

١٧- وقوله : يا بنى أياك والدَّيْن فإنه ذل النهار وهم الليل.

١٨- وقوله : يا بنى أرج الله عز وجل رجاء لا يجرئك على معصية الله تعالى، وخف الله سبحانه خوفا لا يؤيسك من رحمته.

١٩- وقوله : يا بنى حملت الجندل والحديد وكل شئ ثقيل، فلم أحمل شيئا هو أثقل من جار السوء، وذقت المرار فلم أذق شيئا هو أمر من الفقر.

قصة ذى القرنين

قصة ذى القرنين فى القرآن الكريم

قال تعالى : ﴿ وَيَسْأَلُونَكَ عَن ذِي الْقَرْنَيْنِ قُلْ سَأَتْلُو عَلَيْكُم مِّنْهُ ذِكْرًا
(٨٣) إِنَّا مَكَّنَّا لَهُ فِي الأَرْضِ وَآتَيْنَاهُ مِن كُلِّ شَيْءٍ سَبَبًا (٨٤) فَأَتْبَعَ سَبَبًا (٨٥)
حَتَّىٰ إِذَا بَلَغَ مَغْرِبَ الشَّمْسِ وَجَدَهَا تَغْرُبُ فِي عَيْنٍ حَمِئَةٍ وَوَجَدَ عِندَهَا
قَوْمًا قُلْنَا يَا ذَا الْقَرْنَيْنِ إِمَّا أَن تُعَذِّبَ وَإِمَّا أَن تَتَّخِذَ فِيهِمْ حُسْنًا (٨٦) قَالَ أَمَّا
مَن ظَلَمَ فَسَوْفَ نُعَذِّبُهُ ثُمَّ يُرَدُّ إِلَىٰ رَبِّهِ فَيُعَذِّبُهُ عَذَابًا نُّكْرًا (٨٧) وَأَمَّا مَنْ آمَنَ
وَعَمِلَ صَالِحًا فَلَهُ جَزَاءً الْحُسْنَىٰ وَسَنَقُولُ لَهُ مِنْ أَمْرِنَا يُسْرًا (٨٨) ثُمَّ أَتْبَعَ
سَبَبًا (٨٩) حَتَّىٰ إِذَا بَلَغَ مَطْلِعَ الشَّمْسِ وَجَدَهَا تَطْلُعُ عَلَىٰ قَوْمٍ لَّمْ نَجْعَل لَّهُم
مِّن دُونِهَا سِتْرًا (٩٠) كَذَٰلِكَ وَقَدْ أَحَطْنَا بِمَا لَدَيْهِ خُبْرًا (٩١) ثُمَّ أَتْبَعَ سَبَبًا
(٩٢) حَتَّىٰ إِذَا بَلَغَ بَيْنَ السَّدَّيْنِ وَجَدَ مِن دُونِهِمَا قَوْمًا لَّا يَكَادُونَ يَفْقَهُونَ
قَوْلاً (٩٣) قَالُوا يَا ذَا الْقَرْنَيْنِ إِنَّ يَأْجُوجَ وَمَأْجُوجَ مُفْسِدُونَ فِي الأَرْضِ فَهَلْ
نَجْعَلُ لَكَ خَرْجًا عَلَىٰ أَن تَجْعَلَ بَيْنَنَا وَبَيْنَهُمْ سَدًّا (٩٤) قَالَ مَا مَكَّنِّي فِيهِ رَبِّي
خَيْرٌ فَأَعِينُونِي بِقُوَّةٍ أَجْعَلْ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُمْ رَدْمًا (٩٥) آتُونِي زُبَرَ الْحَدِيدِ حَتَّىٰ
إِذَا سَاوَىٰ بَيْنَ الصَّدَفَيْنِ قَالَ انفُخُوا حَتَّىٰ إِذَا جَعَلَهُ نَارًا قَالَ آتُونِي أُفْرِغْ
عَلَيْهِ قِطْرًا (٩٦) فَمَا اسْطَاعُوا أَن يَظْهَرُوهُ وَمَا اسْتَطَاعُوا لَهُ نَقْبًا (٩٧) قَالَ
هَٰذَا رَحْمَةٌ مِّن رَّبِّي فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ رَبِّي جَعَلَهُ دَكَّاءَ وَكَانَ وَعْدُ رَبِّي حَقًّا
(٩٨) ﴾ [الكهف]

ذو القرنين

من هو ذو القرنين ؟

اختلف العلماء والمفسرون فى تحديد شخصية ذى القرنين زعم أنه من ملوك الفرس وأنه أفريدون بن أتقيا بن عشير.

وزعم آخرون أنه ملك من ملوك الصين.

وزعم قوم أنه " اسكندر بن فيلبس المقدونى الرومى تلميذ أرسطا طاليس الفيلسوف. وقد كان ذلك قبل الميلاد بنحو ٣٣٠ سنة، وكان من أهل مقدونيا، وحارب الفرس واستولى على ملكهم وهزمهم كسرى دارا، ثم غزا بلاد الهند، ثم غزا مصر واحتلها وبنى الإسكندرية، ومات فى سن الشباب فى حوالى الثلاثين.

ولكن التاريخ يذكر لنا أن الاسكندر المقدونى وثنى وأن معلمه أرسطا طاليس وثنى أيضا، وكانت أمته وثنية.

أما الأقرب إلى الحقيقة فهو أن ذا القرنين ملك من تبع باليمن، واسمه أبو بكر بن افريقش" ، وقد رحل بجيوشه إلي ساحل البحر الأبيض المتوسط فمر بتونس ومراكش وغيرهما، وبنى مدينة سميت إفريقية، ثم سميت بها اسم القارة المعروفةالآن باسم افريقية.

وقد افتخر به أحد شعراء حمير حيث يقول :

قد كان ذو القرنين جدى مسلما ملكا تدين له الملـــوك وتســـجد

بلغ المشـارق والمغـارب يبتـغى أسـباب مـلـك كريـم مرشـــد

فـرأى مآب الشمس عند غروبها فى ذى خـلـب وثـاط حـرمـــد

والخلب : الطين والثأط : الحمنة والجرمد : الأسود.

وسمى ذا القرنين لأنه بلغ قرنى الشمسش أى مشرقها ومغربا. وقيل كان له قرنان من نحاس فى رأسه، وقيل شج فى رأسه فى أحد حروبه شجتان.

ويستأنس إلى أنه عربى من قبيلة حمير باليمن التى حكم ملوكها من سنة ١١٥ق.م (قبل الميلاد) إلى سنة ٥٥٢ بعد الميلاد أنهم كانوا يسمون ذا ومنهم ذو نفر وذو نواس وذو يزن الذى تعاون مع الفرس لإجلاء الحبشة عن اليمن بعد احتلالها عشرات السنين.

وجوه التشابه والاختلاف بين ذى القرنين والخضر:

ذو القرنين والخضر آتاهما الله علما ورحمة، فالخضر آتاه الله تعالى علما لدنياً، وذو القرنين منحه الله علما بالعمارة والهندسة الإنشائية حتى بنى سدا ضخما عملاقا مازال قائما وإلى قرب قيام الساعة، وأعطاه الله من علم التدبير والسياسة وعلوم الحرب والقتال وفنون القيادة والزعامة، وأضفى عليه الهيبة ومنحه النصر واالغلبة حتى دان له العباد وفتح البلاد وطاف المشارق والمغارب حتى وصل إلى مشارق الأرض ومغاربها وبلغ مطلع الشمس ومغربها ومشرقها من الأرض.

ومن وجوه الاتفاق بين ذى القرنين والخضر أن كلا منهما كان على

علم وبصيرة وعلى هدى من ربه، وأن كلا منهما كان رحيما حليما مع الناس، وأن كلا منهما كان خبيرا بالمعمار والإنشاء والهندسة . فالخضر قد بنى الجدار، وذو القرنين قد بنى السد.

وقد آتى الله تعالى كلا منهما خوارق العادات . فالخضر قد خرق السفينة وعلم مسبقا أن هناك ملك يأخذ كل سفينة سليمة غصبا، وقتل الغلام وقد أعلمه الله تعالى أن هذا الغلام لو كبر كان سيرهق أبويه طغيانا وكفرا ويكون سببا فى فتنهيما فى دينهما.

وبنى الجدار الذى كان يوشك أن يسقط بناء بحيث يخر ساقطا عندما يبلغ الغلامان اليتيمان سن الرشد فيستخرجا كنزهما وأعلمه الله عز وجل أن الجدار لو سقط أثناء طفولة الغلامين لاستولي أهل القرية البخلاء الجشعين على كنز الغلامين الذى تركه لهما أبوهما الصالح، وقد بلغ من بخل أهل القرية وخستهم أنهم رفضوا جميعهم أن يطعموا موسى والخضر عليهما السلام عندما جاءا ،وطلبا طعاما ورغم أنهما لم يطلبا مالا.

أما الأحداث التى جرت على يد ذى القرنين والتى ذكرت فى سورة الكهف فبلوغ مغرب الشمس، وبلوغ مشرقها، وإقامة السد.

ومن وجوه الاختلاف أن أعمال الخضر كانت فوق مستوى البشر ومما يستغربه العقل، أما الأحداث التى جرت على يد ذى القرنين فكانت تجرى على مستوى العقل البشرى غير أنها كانت أعمالا تدل على التفوق والتميز والسداد من الله تعالى.

وقد أبهم القرآن الاسم الحقيقى لذى القرنين وللخضر فسمى كلا منهما عيدا لأن قصص القرآن تهدف إلي بيان العبرة والدروس المستفادة من كل قصة أكثر مما تهتم بذكر أسماء والأشخاص والأماكن وتحديد الأزمان.

بلوغ ذى القرنين مغرب الشمس :

قال تعالى : ﴿ وَيَسْأَلُونَكَ عَن ذِي الْقَرْنَيْنِ قُلْ سَأَتْلُو عَلَيْكُم مِّنْهُ ذِكْرًا ﴿٨٣﴾ ﴾ [الكهف]

وكان الذى سأل الرسول ﷺ عن ذى القرنين مشركو مكة حيث سأل وفد منهم اليهود عن رأيهم فى محمد ﷺ فقالوا له أسألوه عن رجل طواف طاف المشارق والمغارب وعن فتية ذهبوا فى الزمان القديم وعن الروح فإذا أجابكم عن هذه الأسئلة فهو نبى والا فهو مدع فانظروا فى شأنه.

واليهود يعلمون أن الإجابة عن الروح لا تكون فى هذه الدنيا ويعلمون أن الروح سر من أسرار الله تعالى مما اختص الله تعالى بعلمه وحجب سره عن الناس فأوعزوا إلى المشركين بهذا السؤال ليكون ذريعة إلى تكذيب الرسول ﷺ لأنهم يعلمون أن الرسول ﷺ سيجيبهم عن شأن الفتية وهم أهل الكهف وسيجيبهم عن الرجل الطواف ذى القرنين، ولن يجيبهم عن سؤال الروح فهم قوم أهل مكر وخديعة يعلمون الحق ويحيدون (يميلون) عنه.

قال تعالى : ﴿ قُلْ سَأَتْلُو عَلَيْكُم مِّنْهُ ذِكْراً ﴾.

أى قرآنا لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه، فهو ذكر عن أراد أن يتذكر. والذكر يأتى بمعنى الخبر وبمعنى العلم وبمعنى الشرف وبمعنى العبرةوالعظة.

أبنائى الأعزاء:

قصة ذى القرنين مليئة بالعظات والدروس والعبر والقصص العجيب المثير، وذو القرنين اختلف فى ماهيته فمن قائل يقول إنه ملك ومن العلماء من يقول إنه ملك نبى ومنهم من يقول إنه ملك من الملائكة وهناك رجال مختلف فى نبوتهم منهم ذو القرنين ولقمان والخضر والعزير.

ترينا القصة أن الله تعالى قد منح ذا القرنين قوة وعلما وملكا ليكون ذلك عنصر تشويق لمتابعة قصته والاستفادة منها.

قصص القرآن هو أحسن القصص، وكل قصة من قصص القرآن لها مقدمة تناسبها تسوق الأحداث بسلاسة وإثارة وتشويق فى سياق فنى بلاغى يظهر مواطن الجمال فى القصة ويقود إلي وسطها ثم نهايتها فى أجمل تصوير وأبد ع بيان وأحسن أسلوب.

يقول تعالى بعد ذلك : ﴿ إِنَّا مَكَّنَّا لَهُ فِي الأَرْضِ وَآتَيْنَاهُ مِن كُلِّ شَيْءٍ سَبَباً (٨٤) ﴾ [الكهف].

والتمكين هو التثبيت والتمليك والقوة. فكان ذو القرنين يستخدم تلك الإمكانيات فى نشر الإسلام ونصر الضعفاء وتأديب الظلمة والجبابرة. وقد

آتاه الله علما وحكمة وقوة ويسر له سبل السياحة فى الأرض بقوة ويسر واقتدار.

وهو قوله تعالى : ﴿ وَآتَيْنَاهُ مِن كُلِّ شَيْءٍ سَبَبًا (٨٤) ﴾ [الكهف]. أى خبرة توصله إلى مقصده وهدفه.. فاتبع سببا، أى سلك طريقا متجها إلى الغرب حتى انتهى به السير إلى مكان خصب، وقد غربت عليه الشمس وهناك وجد قوما لا يعرفون الله، فحكّمة الله فيهم ، واسند إليه أمر هدايتهم وإصلاحهم، وخيره بين أن يأخذهم بالقوة والشدة وبين أن يأخذهم باللين، فاختار ذو القرنين العدل، فقرر أن يعذب من ظلم نفسه بالكفر والعناد، ورفض الهداية والرشاد، وأخبر أنه سيرد إلى ربه - أى هذا الظالم - فيعذبه عذابا نكرا (شديدا) خالدا.

قال عز وجل : ﴿ حَتَّىٰ إِذَا بَلَغَ مَغْرِبَ الشَّمْسِ وَجَدَهَا تَغْرُبُ فِي عَيْنٍ حَمِئَةٍ وَوَجَدَ عِندَهَا قَوْمًا قُلْنَا يَا ذَا الْقَرْنَيْنِ إِمَّا أَن تُعَذِّبَ وَإِمَّا أَن تَتَّخِذَ فِيهِمْ حُسْنًا (٨٦) قَالَ أَمَّا مَن ظَلَمَ فَسَوْفَ نُعَذِّبُهُ ثُمَّ يُرَدُّ إِلَىٰ رَبِّهِ فَيُعَذِّبُهُ عَذَابًا نُّكْرًا (٨٧) وَأَمَّا مَنْ آمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا فَلَهُ جَزَاءً الْحُسْنَىٰ وَسَنَقُولُ لَهُ مِنْ أَمْرِنَا يُسْرًا (٨٨) ﴾ [الكهف]

ومغرب الشمس الجهة الغربية من الأرض التى كان يسير فيها، والعين الحمئة: هى عين سوداء فى لون الحمأة- وهى الطينة السوداء شديدة الحرارة. ففي قراءة أخرى" فوجدها تغرب فى عين حامية".

أى فوجد الشمس تغرب فى أرض طينية خصبة صالحة للزراعة. فلما وصل إلى تلك الأرض غربت عليه الشمس فيها.

قال ابن كثير فى تفسير قوله تعالى : ﴿ حَتَّىٰ إِذَا بَلَغَ مَغْرِبَ الشَّمْسِ وَجَدَهَا تَغْرُبُ فِي عَيْنٍ حَمِئَةٍ ﴾

انتهى إلى حيث لا يمكن لأحد أن يجاوزه، ووقف على حافة البحر المحيط الغربى الذى يقال له أوقيانوس، الذى فيه الجزائر المسماة بالخالدات التى هى مبدأ الأطوال على أحد قولى أرباب الهيئة. وعنده شاهد مغيب الشمس- فيما رآه بالنسبة إلى مشاهدته لتغرب فى عين حمئة، والمراد بها البحر فى نظره، فإن من كان فى البحر أو على ساحله يرى الشمس كأنها تطلع من البحر وتغرب فيه .

وقوله تعالى : ﴿ قُلْنَا يَا ذَا الْقَرْنَيْنِ ﴾ دلالة على أنه نبى يوحى إليه.

وعندما بدأ ذو القرنين بذكر جزاء الظالمين بدأ يذكر جزاءه لضآلته إلى جانب جزاء الله وعذابه لهم. ولما ذكر جزاء المؤمنين ذكر جزاء الله أولا لعظيم جزاء الله للمؤمنين وصغر جزاءه هو بجانب جزاء الله تعالى.

بلوغه مطلع الشمس :

اتجه ذو القرنين مسرعا إلى أهل المشرق ليفعل بهم من الخير بعدما أصلح من شأن أهل المغرب، فسلك الطريق التى يعرفها بمن معه من الجنود والخبراء والمهندسين حتى انتهى إلى أقصى الشرق، وهو المكان الذى تشرق منه الشمس عليه قبل غيره. فوجدها تطلع على قوم كسالى خاملين لا نشاط لهم ولا عمل مجدى، وهم عراة وليس عليهم ما يسترهم، وليس فى بلادهم من شجر ولا بناء يقيهم حر الشمس، بل كانوا يعيشون

فى الكهوف والمغارات، وحالهم حال أهل المغرب فى الكفر والإلحاد والإفساد فى الأرض.

لم يكونوا أهل حضارة ولا أهل علم ولا صناعة ولا زراعة ولا معمار ولا هندسة، ولعلهم كانوا يعيشون على الصيد.

قال تعالى : ﴿ وَأَمَّا مَنْ آمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا فَلَهُ جَزَاءً الْحُسْنَىٰ وَسَنَقُولُ لَهُ مِنْ أَمْرِنَا يُسْرًا (٨٨) ثُمَّ أَتْبَعَ سَبَبًا (٨٩) حَتَّىٰ إِذَا بَلَغَ مَطْلِعَ الشَّمْسِ وَجَدَهَا تَطْلُعُ عَلَىٰ قَوْمٍ لَّمْ نَجْعَل لَّهُم مِّن دُونِهَا سِتْرًا (٩٠) كَذَٰلِكَ وَقَدْ أَحَطْنَا بِمَا لَدَيْهِ خُبْرًا (٩١) ﴾ [الكهف]

وقوله تعالى : ﴿ وَقَدْ أَحَطْنَا بِمَا لَدَيْهِ خُبْرًا ﴾ أنه فعل بهم مثل ما فعل بأهل المغرب ولديه أى عنده وخبرا أى علما، وقد أحاط الله تعالى بما عند ذى القرنين من خبر ومعرفة، فأرسلناه إليهم لهدايتهم وإصلاح شأنهم، وكان الله معه بتوفيقه ورعايته وتسديده ونصره حيثما كان، فمكنه الله تعالى من نواصيهم فلما مكنه من أهل المغرب، وهو أى ذو القرنين- خبير بطبائع الناس مهما اختلفت أجناسهم وبيئاتهم وأوطانهم، عليم بلغاتهم وعاداتهم وطبائعهم وحاجاتهم وأساليب إخضاعهم لهداية الدين الحق.

أبنائى الأعزاء:

كان ذو القرنين عليما بعلوم الحضارة والهندسة والمعمار وعلوم الاجتماع وعلم النفس وعلوم الدين وعلوم اللغات والجغرافيا والفلك والتاريخ وغير ذلك من العلوم مما علمه الله ومكنه فى الأرض

وهذه االعلوم والمعارف والخبرات لازمة لسياسة الأمم ودعوتها إلى الله تعالى. ومن لا يعرف كل هذه العلوم من الملوك والحكام فهو يستشير أهل العلم والخبرة وإلا تدهورت الأحوال وتوقف التقدم والعمران.

بلوغ ذى القرنين بين السدين:

أبنائى الأعزاء:

ثم اتخذ ذو القرنين طريقا إلى مكان فى أقصى الأرض لا هو بأقصى المغرب ولا هو بأقصى المشرق، يقال له - يُسمى- بين السدين، وكثير من علماء التفسير والسير والأخبار والتاريخ يقولون إن هذا السد يقع فى بلاد الترك. وقد روى العلامة المسعودى فى كتابه مروج الذهب وصف لهذا السد وأخبر أن الخليفة العباس الواثق أرسل بعثة لتعاين السد وتكتب له تقريرا عنه بعدما رآه رجل من أتباعه وكذلك أخبر عن السد العلامة بن كثير فى البداية والنهاية.

واستطاع ذو القرنين أن يفهم لغة القوم، وشكوا إليه حال قوم يقال لهم: يأجوج ومأجوج - وعرضوا عليه أن يبنى لهم سدا بينهم وبين هؤلاء المسفدين الذين يتسللون اليهم من بين الجبلين ويشنون عليهم الغارات تلو الغارات يقتلون رجالهم ويسبون نسائهم وأطفالهم وينهبون مواشيهم وأغنامهم. وعرضوا عليه أجرا نظير بناء سد بين الجبلين يمنع غارات يأجوج ومأجوج عليهم، فاعتذر عن أخذ الأجرة، وأخبرهم إنه فى غنى عنه، فإن عطاء الله واسع، وأن ما عنده من النعمة والمال يكفيه، وطلب منهم أن يعينون بسواعدهم وأن يشاركوا معه فى بناء السد.

فأمرهم أن يجمعوا له قطع الحديد، وأن يصنعوا كيرا لحرق الحديد وأمرهم أن يجمعوا الرصاص أو النحاس ليصهره على الحديد بعد أن يكون قد ساوى بين الجبلين أى سد الفرجة بين الجبلين حتى يتمكن من إحكام صبه فكان عملهم.

جمع الحديد، ونفخ الكير، وجمع النحاس :

وقام هو : بالتسوية بين الجبلين، وصب الحديد، وافرا غ النحاس عليه. فكان سدا منيعا شديد الصلابة لم يستطع يأجوج ومأجوج أن ينقبوه (يثقبوه) ولا أن يظهروا (يصعدوا) عليه لمتانته وارتفاعه وبهذا كان السد آية من آيات الله، وكان اختراقه علامة من علامات الساعة الكبرى.

قال تعالى : ﴿ ثُمَّ أَتْبَعَ سَبَبًا (٩٢) حَتَّىٰ إِذَا بَلَغَ بَيْنَ السَّدَّيْنِ وَجَدَ مِن دُونِهِمَا قَوْمًا لَّا يَكَادُونَ يَفْقَهُونَ قَوْلًا (٩٣) قَالُوا يَا ذَا الْقَرْنَيْنِ إِنَّ يَأْجُوجَ وَمَأْجُوجَ مُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ فَهَلْ نَجْعَلُ لَكَ خَرْجًا عَلَىٰ أَن تَجْعَلَ بَيْنَنَا وَبَيْنَهُمْ سَدًّا (٩٤) قَالَ مَا مَكَّنِّي فِيهِ رَبِّي خَيْرٌ فَأَعِينُونِي بِقُوَّةٍ أَجْعَلْ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُمْ رَدْمًا (٩٥) آتُونِي زُبَرَ الْحَدِيدِ حَتَّىٰ إِذَا سَاوَىٰ بَيْنَ الصَّدَفَيْنِ قَالَ انفُخُوا حَتَّىٰ إِذَا جَعَلَهُ نَارًا قَالَ آتُونِي أُفْرِغْ عَلَيْهِ قِطْرًا (٩٦) فَمَا اسْطَاعُوا أَن يَظْهَرُوهُ وَمَا اسْتَطَاعُوا لَهُ نَقْبًا (٩٧) قَالَ هَٰذَا رَحْمَةٌ مِّن رَّبِّي فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ رَبِّي جَعَلَهُ دَكَّاءَ وَكَانَ وَعْدُ رَبِّي حَقًّا (٩٨) ﴾ [الكهف]

فالسدان هما الجبلان المحيطان بالوادى، والخرج هو الأجر، وزُبر الحديد: قطع الحديد. والصدقان الجبلان، والقطر: الرصاص أو النحاس المذاب.

وقوله تعالى : ﴿ سَاوَىٰ بَيْنَ الصَّدَفَيْنِ ﴾ أى سوى بينهما بحيث حك جانبيهما حتى يصيرا مستويين لا يرتفع أحدهما عن الآخر.

فلما فرغ من بناء السد بين الجبلين على نحو لم يسبقه إليه أحد، وبناه ضخما عملاقا راسخا فى الأرض قائما على وجهها إلى يوم القيامة - لما فرغ من ذلك لم يأخذه الغرور وإنما تضاءل وتواضع أمام قدرة الله تعالى ونعمته حيث مكنه من صنع هذا السد المعجزة وقال : ﴿ هَٰذَا رَحْمَةٌ مِّن رَّبِّي ﴾ أى من صنع الله لا من صنعى، وبقدرة الله وحوله لا بقدرنى وحولى وهو قبس من رحمة الله على الناس جميعا إذ جعله الله تعالى وقاية لهم وحاجزا بين يأجوج ومأجوج وبينهم إلي قرب قيام الساعة. فإذا اقترب مجيئها يمكن يأجوج ومأجوج من ثقب السد ومن الصعود على ظهره بعد أن كانوا عاجزين عن ذلك. ﴿ فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ رَبِّي جَعَلَهُ دَكَّاءَ ﴾ أى سواه بالأرض وهدمه.

وكان وعد ربى حقا : لا يتخلف ولا يتبدل. قال تعالى فى سورة الأنبياء : ﴿ حَتَّىٰ إِذَا فُتِحَتْ يَأْجُوجُ وَمَأْجُوجُ وَهُم مِّن كُلِّ حَدَبٍ يَنسِلُونَ (٩٦) وَاقْتَرَبَ الْوَعْدُ الْحَقُّ فَإِذَا هِيَ شَاخِصَةٌ أَبْصَارُ الَّذِينَ كَفَرُوا يَا وَيْلَنَا قَدْ كُنَّا فِي غَفْلَةٍ مِّنْ هَٰذَا بَلْ كُنَّا ظَالِمِينَ (٩٧) ﴾ [الأنبياء]

أبنائى الأعزاء:

الناس دائما في حاجة إلي مرشد ناصح أمين عالم خبير حكيم يقودهم إلى مواطن الخير ويدفعهم عن مواطن الشر والإفساد، في حاجة

إلى بطل شجاع قدوة قد تجرد من الأنانية واتصف بالرحمة وحب الإنسانية ملتزما بنهج الله سبحانه وتعالى.

فمتى يظهر فى دنيا الناس وفى عصرنا هذا مثال يحتذى به ويجتمع الناس حوله لتحقيق سعادة الإنسانية فى ظل الإيمان والعدالة والمساواة. وهذه رسالة الأنبياء والقادة العظام.

فلعلك بنى العزيز تكون هذا الرجل فى مستقبل أيامك ليتحقق نصرة الإسلام وأعزار الدين وإقامة العدل والسلام والرخاء.

وصف سد يأجوج ومأجوج:

لايعرف على وجه الأرض بناء أجل منه ولا أنفع للخلق منه فى أمر دنياهم.

وقد ذكر أن الخليفة الواثق بعث رسلا من جهته وكتب كتابا إلى الملوك يوصلونهم من بلاد إلى بلاد حتى ينتهوا إلى السد فيكشفوا عن خبره وينظروا كيف بناه ذو القرنين وعلى أى صفة ؟ فلما رجعوا أخبروا عن صفته وأن فيه بابا عظيما وعليه أقفال وأنه بناء محكم شاهق منيع جدا (مرتفع) وأن بقية اللبن (الطوب الحديدى) والآلات فى برج هناك، وذكروا أنه لايزال هناك حرس لتلك الملوك المتاخمة (المجاورة) لتلك البلاد ومحلته (مكانه) فى شرقى الأرض جهة الشمال فى زواية الأرض الشرقية الشمالية، ويقال : إن بلادهم متسعة جدا وأنهم يقتاتون بأصناف من المعايش من حراثة وزراعة واصطياد من البر والبحر، وهم أمم وخلق لا يعلم عددهم إلا الذى خلقهم.

قصة يأجوج ومأجوج

من هم يأجوج ومأجوج :

يأجوج ومأجوج من سلالة آدم عليه السلام. جاء فى الصحيحين البخارى ومسلم : " أن الله تعالى يقول : يا آدم. فيقول لبيك وسعديك. فيقول : أبعث بعث النار. فيقول : وما بعث النار ؟ فيقول : من كل ألف تسعمائة وتسعة وتسعون إلى النار وواحد إلي الجنة، فحينئذ يشيب الصغير، وتضع كل ذات حمل حملها، فيقال : إن فيكم أمتين. ما كانت فى شئ إلا كثرتاه: يأجوج ومأجوج.

وهم من أبناء نوح عليه السلام قال تعالى :

﴿ فَأَنجَيْنَاهُ وَأَصْحَابَ السَّفِينَةِ وَجَعَلْنَاهَا آيَةً لِّلْعَالَمِينَ (١٥) ﴾[العنكبوت]

وقال عز وجل : ﴿ وَجَعَلْنَا ذُرِّيَّتَهُ هُمُ الْبَاقِينَ (٧٧) ﴾ [الصافات]

ونوح عليه السلام هو الأب الثانى للبشرية فكل من بقى بعد نوح عليه السلام فهو من أبنائه.

وفى المسند والسنن كما قال العلامة ابن كثير فى البداية والنهاية : أن نوحا ولد له ثلاثة : وهم سام وحام ، ويافت، فسام أبو العرب، وحام أبو السودان. ويافت أبو الترك، فيأجوج ومأجوج طائفة من الترك، وهم أشد بأسا وأكثر فسادا من المغول. وقيل إن الترك إنما سموا بذلك حين بنى ذو القرنين السد وألجأ يأجوج ومأجوج إلى ما وراءه فبقيت طائفة لم يكن عندهم كفسادهم فتركوا من ورائه فلهذا قيل لهم الترك.

حفرهم للسد :

وروى الإمام أحمد فى مسنده إلى أبى هريرة (رضى الله عنه) عن رسول الله ﷺ قال : "إن يأجوج ومأجوج ليحفرون كل يوم حتى إذا كادوا يرون شعاع الشمس قال الذى عليهم : ارجعوا فستحفرونه غدا فيعودون إليه كأشد ما كان حتى إذا بلغت مدتهم وأراد الله أن يبعثهم على الناس حفروا حتى إذا كادوا يرون شعاع الشمس قال الذى عليهم إرجعوا فستحفرونه غدا إن شاء الله ، ويستثنى فيعودون إليه كهيئته يوم تركوه، فيحفرونه ويخرجون على الناس فيستقون المياه، وتتحصن الناس فى حصونهم فيرمون بسهامهم إلى السماء فترجع وعليها كهيئة الدم. فيقولون: قهرنا الأرض وعلونا السماء فيبعث الله عليهم نغفا (دودا) فى أقفأهم فيقتلهم بها. قال رسول الله ﷺ : والذى نفس محمد بيده إن دواب الأرض لتشمن وتشكر شكرا من لحومهم ، ودمائهم".

وقوله : الذى عليهم أى رئيسهم أو ملكهم. وقوله : علونا من فى السماء يقصدون الله سبحانه وتعالى. وقوله : تسمن وتشكر من لحومهم ودمائهم. أى من جيفهم فيرسل الله تعالى طيورا تخرج من البحر تأكل رممهم حتى تسمن ويبعث عليهم ريحا تلقى بهم فى البحر.

وجاء فى الصحيحين عن أبى هريرة (رضى الله عنه) عن رسول الله ﷺ : فتح اليوم من ردم (سد) يأجوج ومأجوج مثل هذه وعقد تسعين أى فتح فتحا نافذا فيه.

أبنائى الأعزاء:

وخروج يأجوج ومأجوج فى آخر الزمان من علامات القيامة الكبرى وخروجهم يكون معاصرا لنزول المسيح عيسى بن مريم عليه السلام من السماء.

قال كعب الأحبار:

إن يأجوج ومأجوج ينقرون بمناقرهم السد حتى إذا كادوا أن يخرجوا قالوا: نرجع إليه غدا. وقد عاد كما كان. فإذا بلغ الأمر ألقى على بعض أن يقولوا نرجع إن شاء الله غدا فنفرغ منه ، قال فيرجعون إليه وهو كما تركوه فيخرقونه ويخرجون، فيأتى أولهم البحيرة فيشربون مافيها من ماء، ويأتى أوسطهم عليها فيلحسون ما كان فيها من طين.

ويأتى آخرهم فيقولون : قد كان هاهنا ماء ثم يرمون نبلاً لهم نحو السماء فيقولون : قد قهرنا من فى الأرض وظهرنا على من فى السماء. قال فيلسط الله عليهم دواب يقال لها النغف فيأخذ فى أقفائهم فيقتلهم النغف حتى تنتن الأرض من ريحهم، ثم يبعث الله عليهم طيرا فتنقل أبدانهم إلى البحر فيرسل الله السماء أربعين، فتنبت الأرض حتى إن الرمانة لتشبع السكن، قيل لكعب : وما السكن؟ قال : أهل البيت.

قال : ثم يسمعون الصيحة.

وأخرج ابن ماجه عن أبى هريرة (رضى الله عنه) قال : قال رسول الله ﷺ : إن يأجوج ومأجوج يحفران كل يوم حتى إذا كادوا يرون شعاع

الشمس قال الذى عليهم ارجعوا فستحفرونه غدا. فيعيده الله أشد ما كان حتى إذا بلغت مدتهم وأراد الله أن يبعثهم على الناس قال ارجعوا فستحفرونه غدا إن شاء الله. فيرجعون إليه وهو كهينته ححين تركوه فيحفرونه ويخرجون على الناس فينشفون الماء ويتحصن الناس منهم بحصونهم فيرمون بسهامهم إلى السماء فيرجع إليهم الدم فيقولون : قهرنا أهل الأرض وعلونا أهل السماء فيبعث الله نغفا فى أقفائهم، فيقتلون . قال رسول الله ﷺ : والذى نفسى بيده إن دواب الأرض قسمن وتشكر شكرا من كثرة ما تأكل من لحومهم.

وقوله : فيرجع إليهم الدم: هذا ابتلاء من الله تعالى لهم واستدراج.

وأخرج ابن ماجه عن أبى سعيد الخدرى (رضى الله عنه) أن رسول الله ﷺ قال : يفتح مأجوج ومأجوج فيخرجون كما قال الله تعالى : ﴿ حَتَّىٰ إِذَا فُتِحَتْ يَأْجُوجُ وَمَأْجُوجُ وَهُم مِّن كُلِّ حَدَبٍ يَنسِلُونَ ﴿٩٦﴾ ﴾ [سورة الأنبياء]

فيعمّون الأرض وينحاز منهم المسلمون حتى يصير بقية المسلون في موائنهم وحصونهم، ويضمون إليهم مواشيهم حتى أنهم ليمرون بالنهر فيشربونه حتى ما يذروا (يتركوا) فيه شيئا فيمر آخرهم على أثرهم فيقول قائلهم لقد كان بهذا المكان مرة ماء ويظهرون على الأرض فيقول قائلهم: هؤلاء أهل الأرض قد فرغنا منهم لننازلن أهل السماء حتى إن آخرهم ليهز حربته إلى السماء فترجع مخضبة بالدم، فيقولون قد قتلنا أهل السماء فبينما هم كذلك ! بعث الله عليهم دواب كنغف الجراد، فتأخذ أعناقهم

فيموتون موت الجراد يركب بعضهم بعضا. فيصبح المسلمون لا يسمعون لهم حسا. فيقولون : هل من رجل يشرى (يبيع) نفسه وينظر ما فعلوا؟ فينزل إليهم رجل قد وطن نفسه على أن يقتلوه فيجدهم موتى، فيناديهم ألا أبشروا فقد هلك عدوكم فيخرج الناس ويخلون سبيل مواشيهم فما يكون لهم مرعى إلا لحومهم فتشكر عليها كأحسن ماشكرت من نبات أصابته قحط.

ومعنى ذلك أن المواشى يومئذ تأكل اللحوم على غير عادتها وهذا من عجائب آخر الزمان.

إخبار المسيح عليه السلام عن يأجوج ومأجوج:

بنى العزيز بنيتى العزيزة:

خرج ابن ماجه وابن أبى شيبة، عن عبد الله ابن مسعود (رضى الله عنه) قال : لما كان ليلة أسرى برسول الله ﷺ لقى إبراهيم وموسى وعيسى عليهم السلام فتذاكروا الساعة فبدأوا بإبراهيم فلم يكن عنده علم منها فسألوا موسى فلم يكن عنده علم منها فردوا الحديث إلى عيسى قال قد عهد إلى فيما دون وجبتها، فأما وجبتها (صوتها) فلا يعلمها إلا الله فذكروا خروج الدجال. قال : فأنزل إليه فاقتله فيرجع الناس إلي بلاهم فيستقبلهم يأجوج ومأجوج" ﴿ حَتَّىٰ إِذَا فُتِحَتْ يَأْجُوجُ وَمَأْجُوجُ وَهُم مِّن كُلِّ حَدَبٍ يَنسِلُونَ ﴿٩٦﴾ ﴾ [الأنبياء]، فلا يمرون بماء إلا شربوه ولاشئ إلا أفسدوه فيجأرون إلى الله (يعنى المسلمين) فأدعوا الله أن يمينهم (يأجوج

ومأجوج) فتنتن الأرض من ريحهم فيجأرون إلى الله فأدعو الله فيرسل السماء فتحملهم فتلقيهم فى البحر، ثم تنسف الجبال وتمد الأرض مد الأديم فعهد إلى إذا كان ذلك كانت الساعة من الناس كالحامل التى لا ندرى أهلها متى تعجلهم بولادتها. فلا يمرون ببحر إلا شربوه ولا شئ إلا أفسدوه.

وروى عن عطية بن حسان أنه قال : يأجوج ومأجوج أمتان في كل أمة أربعمائة ألف ليس فيها أمة تشبه بعضها بعضا.

وروى عن الأوزاعى أنه قال : الأرض سبعة أجزاء ستة أجزاء منها : يأجوج ومأجوج ، وجزء فيه سائر الخلق.

وروى عن أرطأه بن المنذر قال : إذا خرج يأجوج ومأجوج أوحى الله تبارك وتعالى إلى عيسى عليه السلام أنى قد أخرجت خلقا من خلقى لا يطيقهم أحد غيرى فمر بمن معك إلي جبل الطور ومعه من الذرارى (الأبناء من الأطفال) اثنا عشر ألفا. قال يأجوج ومأجوج ذرء فى جنهم ... الحديث.

ويروى عن النبى ﷺ فى حديث ضعيف قال : يأجوج ومأجوج أمة لها أربعمائة أمير، وكذلك مأجوج لا يموت أحدهم حتي ينظر إلى ألف فارس من ولده. صنف منهم كالأرز. وصنف منهم طوله مائة وعشرون ذراعا، وصنف منهم يفترش أذنه ويلتحف بالأخرى، لايمرون بفيل ولا خنزير إلا أكلوه ويأكلون من مات منهم، مقدمتهم بالشام وساقتهم بخراسان يشربون أنهار المشرق وبحيرة طبرية فيمنعهم الله من مكة والمدينة وبيت المقدس.

قوله : مقدمتهم أى أولهم، وقوله : ساقتهم أى آخرهم يقال ساقة الجيش أى مؤخرته.

وقوله : فيمنعهم الله من مكة والمدينة وبيت المقدس، لأن هذه هى أشرف وأقدس البقاع على الأرض.

ويروى أنهم يأكلون جميع حشرات الأرض من الحيات والعقارب وكل ذى روح مما خلق الله فى الأرض، وليس لله خلق ينمى كنمائهم في العام الواحد ولا يزداد كزيادتهم ولا يكثر ككثرتهم، يتداعون تداعى الحمام ويعوون عواء الذئاب ويتسافدون تسافدا البهائم حيث التقوا (أى لا يستحيون حيث يأتى الذكور الإناث علانية) ومنهم من له قرن وذنب وأنياب بارزة يأكلون اللحوم نيئة.

وقال كعب الأحبار: خلق الله يأجوج ومأجوج على ثلاثة أصناف أجسامهم كالأرز (شجرة بلبنان)، وصنف أربعة أذرع طولا وأربعة أذرع عرضا، وصنف يفترشون آذانهم ويلتحفون بالأخرى فيأكلون مشائم نسائهم (ذكره الحافظ أبو نُعيم شيخ البخارى).

وذكر عبد الملك بن حبيب أنه قال فى قول الله عز وجل فى قصة ذى القرنين: ﴿ فَأَتْبَعَ سَبَبًا (٨٥) ﴾ [الكهف] يعنى منازل الأرض معاليها وطرقها حتى إذا بلغ بين السدين يعنى الجبلين الذين خلفهم يأجوج ومأجوج وجد من دونها قوما لا يكادون يفقهون قولا أى كلاما.

﴿ قَالُوا يَا ذَا الْقَرْنَيْنِ إِنَّ يَأْجُوجَ وَمَأْجُوجَ مُفْسِدُونَ فِي الأَرْضِ فَهَلْ نَجْعَلُ لَكَ خَرْجًا عَلَىٰ أَن تَجْعَلَ بَيْنَنَا وَبَيْنَهُمْ سَدًّا (٩٤) ﴾ [الكهف]

وهما أمتان من ولد يافت بن نوح مد الله لهما فى العمر فأكثر لهما فى النسل، حتى ما يحدث الرجل من يأجوج ومأجوج حتى يولد له ألف ولد آدم كلهم عشرة أجزاء: يأجوج ومأجوج منهم تسعة أجزاء وسائر ولده كلهم جزء واحد.

بنى العزيز:

ومعنى ذلك إن تسعة أعشار من يدخلون النار من أمتى يأجوج ومأجوج وهذا يخفف من الرعب والحزن الذى يثيره حديث بعث النار وبعث الجنة.

ذو القرنين يقيم السد
ليحجز يأجوج ومأجوج

قال عبد الملك : كانوا يخرجون أيام الربيع إلى أرض القوم الذين هم قريب منهم فلا يدعون لهم شيئا إذا كان أخضر إلا أكلوه ولا باب إلا حملوه، فقال أهل تلك الأرض لذى القرنين : هل نجعل لك خرجا يعنى جعلا أى أجرا ﴿عَلَىٰ أَن تَجْعَلَ بَيْنَنَا وَبَيْنَهُمْ سَدًّا ﴿٩٤﴾﴾ [الكهف]، ﴿قَالَ مَا مَكَّنِّي فِيهِ رَبِّي خَيْرٌ فَأَعِينُونِي بِقُوَّةٍ أَجْعَلْ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُمْ رَدْمًا ﴿٩٥﴾﴾ [الكهف]، قالوا له وما تريد ؟ قال ﴿آتُونِي زُبَرَ الْحَدِيدِ حَتَّىٰ إِذَا سَاوَىٰ بَيْنَ الصَّدَفَيْنِ قَالَ انفُخُوا حَتَّىٰ إِذَا جَعَلَهُ نَارًا قَالَ آتُونِي أُفْرِغْ عَلَيْهِ قِطْرًا ﴿٩٦﴾﴾ [الكهف]. أى قطع الحديد فوضع بعضها على بعض كهيئة البناء فيا بين الصدفين وهما جبلان حتى إذا ساوى بين الصدفين، يعنى جانب

الجبلين "قال انفخوا، أى أوقدوا" ﴿ فَمَا اسْطَاعُوا أَن يَظْهَرُوهُ وَمَا اسْتَطَاعُوا لَهُ نَقْبًا ﴿٩٧﴾ ﴾ [الكهف] ، أى من تحته.

﴿ قَالَ هَذَا رَحْمَةٌ مِّن رَّبِّي فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ رَبِّي جَعَلَهُ دَكَّاءَ وَكَانَ وَعْدُ رَبِّي حَقًّا ﴿٩٨﴾ ﴾ [الكهف]

وفى تفسير الحوفى:

إن ذا القرنين لما عاين ذلك منهم انصرف إلى مابين الصدفين (الجبلين) فقاس ما بينهما وهو فى منقطع الترك مما يلى مشرق الشمس، فوجد بعد ما بينهما مائة فرسخ فلما أنشأ فى عمله حفر له أساسا حتى إذا بلغ الماء جعل عرضه خمسين فرسخا، وجعل حشوه الصخور وطينه النحاس المذاب ثم صب عليه ، فصار كأنه عرق من جبل تحت الأرض ، ثم علاه بزبر الحديد والنحاس المذاب وجعل خلاله عرقا من نحاس فصار كأنه برد حبره (ثوب مزين وملون) من صفرة النحاس وحمرته وسواد الحديد، فلما فرغ منه وأحكمه انطلق عائدا إلى جماعة الإنس والجن.

وعن على (رضى الله عنه) قال : وصنف منهم فى طول شبر لهم مخالب وأنياب كالسباع وتداعى الحمام وتساند البهائم وعواء الذئب. وشعور تقيهم الحر والبرد وآذان عظام أحدهما وبرة يشتون فيها، والأخرى جلدة يصيفون فيها .

ويرى العلامة ابن كثير : أنهم على شكل بنى آدم وصفاتهم. وذكر حديث النبى ﷺ "إن الله خلق آدم وطوله ستون ذراعا ثم لم يزل الخلق ينقص حتى الآن".

وإن صحت الأحاديث التى تصف خلقة يأجوج ومأجوج فيكونون استثناء من سائر الناس.

وقد جاء فى حديث متفق عليه أى رواه البخارى ومسلم: أنهم فداء المؤمنين يوم القيامة وأنهم في النار ولم يبعث إليهم رسل. وقد مر بنا أنهم من أهل النار لماذا؟

هناك حديث مروى عن جماعة من الصحابة عن رسول الله ﷺ : إن من كان كذلك يمتحن فى عرصات القيامة (العرصة : فسحة الدار). فمن أجاب الداعى دخل الجنة ومن أبى دخل النار.

يقول تعالى : ﴿ وما كنا معذبين حتى نبعث رسولا ﴾. وامتحان من لم يبعث إليه رسول والأصم والمجنون وأطفال المشركين أن يبعث إليهم رسولا فى ساحات القيامة يبلغهم أمر الله تعالى بأن يدخلوا النار فإن دخلوها كانت عليم بردا وسلاما وإن لم يدخلوها ادخلوها رغما عنهم فامتحان يأجوج ومأجوج لا يقتضى نجاتهم، ولا ينافى الأخبار عنهم بأنهم من أهل النار لأن الله يطلع رسوله ﷺ على ما يشاء من أمر الغيب وقد أطلعه أن هؤلاء من أهل الشقاء وأن سجاياهم تأبى قبول الحق والانقياد له وهم لا يجيبون الداعى يوم القامة فيعلم من هذا أنهم كانوا أشد تكذيبا للحق فى الدنيا لو بلغهم فيها لأن فى عرصات القيامة ينقاد خلق ممن كان مكذبا فى الدنيا فإيقاع الإيمان هناك لما يشاهد من الأهوال أولى وأحرى منه فى الدنيا كما قال تعالى :

﴿ وَلَوْ تَرَىٰ إِذِ الْمُجْرِمُونَ نَاكِسُوا رُءُوسِهِمْ عِنـــدَ رَبِّهِمْ رَبَّنَا أَبْصَرْنَا وَسَمِعْنَا فَارْجِعْنَا نَعْمَلْ صَالِحًا إِنَّا مُوقِنُونَ (١٢) ﴾ [السجدة]

وقال تعالى : ﴿ أَسْمِعْ بِهِمْ وَأَبْصِرْ يَوْمَ يَأْتُونَنَا لَكِنِ الظَّالِمُونَ الْيَوْمَ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ (٣٨) ﴾ [مريم]

روى البخارى : قال رجل للنبى ﷺ : رأيت السد قال : وكيف رأيته. قال : مثل البرد المحبر فقال : رأيته.

وروى ابن جرير فى تفسيره عن قتادة قال : ذكر لنا أن رجلا قال : يارسول الله قد رأيت سد يأجوج ومأجوج، قال : انعته لى (صفه لى) قال كالبرد والمحبر طريقة سوداء وطريقة حمراء، قال قد رأيته.

وذكر ابن كثير الحديث الذى رواه البخارى ومسلم عن زينب بنت جحش أم المؤمنين (رضى الله عنها) قالت: استيقظ رسول الله ﷺ من نومه محمرا وجهه وهو يقول : لا إله إلا الله ويل للعرب من شر قد اقترب فتح اليوم من ردم يأجوج ومأجوج مثل هذه : " وخلفه تسعين، قلت يارسول الله أنهلك وفينا الصالحون . قال : نعم إذا كثر الخبث .

بعض العلماء يرى أن معنى ذلك أنها إشارة إلى فتح أبواب الشر والفتن وبعض العلماء قال بل هذا أمر محسوس وقوله تعالى فما استطاعو أن يظهروه وما استطاعوا له نقبا أى فى ذلك الزمان الذى بناه ذو القرنين.

وهذا الفريق من العلماء يرى أن الرسول ﷺ كان يخبر عن قرب خروج التتار للإفساد فى بلاد الإسلام وقد خرج التتار من بادية الصين

وبلاد شرق آسيا تسمى الترك وليس دولة تركيا فقط. خرج التتار الذين هم من يأجوج ومأجوج وعادوا فى الأرض فسادا وقتلوا ٢٠ مليون من المسلمين وأسقطوا الخلافة العباسية وجابوا أنحاء الأرض ولم يستطع أن يتصدى لهم وينتصر عليهم غير شعب مصر بقيادة المماليك وعلي رأسهم السلطان سيف الدين قطز.

نزول عيسى آخر الزمان

أبنائى الأعزاء

قلنا أن خروج يأجوج ومأجوج يكون معاصرا لنزول عيسى عليه السلام إلى الأرض، ويكون لعيسى عليه السلام مهام يؤديها قبيل قيام الساعة منها قتله للدجال وقتل الخنازير وكسر الصلبان فيسلم الناس على يديه ويقود المسلمين ويتحصن معهم فى جبل الطور من يأجوج ومأجوج وقد وردت أحاديث كثيرة تفيد أن عيسى عليه السلام سينزل آخر الزمان يحكم بشريعة النبى محمد ﷺ مدة أربعين سنة، وينشر العدل والسلام بين الناس ، ويكثر المال فى عهده حتى لايجد من يأخذه، ويؤمن به أهل الكتاب جميعا، وتحدث فى أيامه عجائب كثيرة.

ومن هذه الأحاديث ما رواه البخارى فى مسنده إلى أبى هريرة (رضى الله عنه) أن رسول الله ﷺ قال : "والذى نفسى بيده ليوشكن أن ينزل فيكم ابن مريم حكما عدلا فيكسر الصليب، ويقتل الخنزير، ويضع الجزية، ويفيض المال حتى لا يقبله أحد، حتى تكون السجدة خيرا من الدنيا وما فيها، ثم يقول أبو هريرة : واقرأوا إن شئتم ﴿ وَإِن مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ إِلاَّ

﴿ لَيُؤْمِنَنَّ بِهِ قَبْلَ مَوْتِهِ وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ يَكُونُ عَلَيْهِمْ شَهِيداً (159) ﴾ [النساء]

وروى الإمام أحمد فى مسنده وأبو داود فى سننه عن أبى هريرة (رضى الله عنه) أن النبى ﷺ قال : "الأنبياء إخوة لعلات (1) أمهاتهم شتى ودينهم واحد، وإنى أولى الناس بعيسى بن مريم، لأنه لم يكن بينى وبينه نبى، وإنه نازل، فإذا رأيتموه فاعرفوه، رجل مربوع إلى الحمرة والبياض ، عليه ثوبان ممصران(2) كأن رأسه يقطر وإن لم يصبه بلل، فيدق الصليب ويقتل الخنزيرو ويضع الجزية(3) ويدعو الناس إلى الإسلام ويهلك الله فى زمانه الملل كلها إلا الإسلام، ويهلك الله فى زمانه المسيح الدجال ، ثم تقع الأمنة(4) على الأرض حتى ترتع الأسود مع الإبل، والنمار(5) مع البقرة، والذئاب مع الغنم، ويلعب الصبيان بالحيات(6) لا تضرهم، فيمكث فى الأرض أربعين سنة، ثم يتوفى ويصلى عليه المسلمون".

وروى مسلم فى صحيحه فى كتاب الفتن عن النواس بن سمعان قال: ذكر لرسول الله ﷺ الدجال ذات غداة فحفض فيه ورفع(7) حتى ظنناه فى طائفة - النخل فلما رحنا إليه ، عرف ذلك فينا، فقال : "ما شأنكم، قلنا يارسول الله إنك ذكرت لنا الدجال غداه فخفضت فيه ورفعت حتى ظنناه فى طائفة النخل. فقال : غير الدجال أخوفنى عليكم، إن يخرج وأنا فيكم فأنا حجيجه دونكم، وإن يخرج ولست فيكم فأمرؤ حجيج نفسه، والله

---

(1) أخوة لأب.
(2) مصبوغان بحمر، خفيفة.
(3) لايقبلها.
(4) الأمان.
(5) جمع نمر .
(6) الثعابين.
(7) أى ذكر جرائمه ليحذره الناس.

خليفتى على كل مسلم، إنه شاب قطط(١) عينه طافئة(٢) كأنى أشبهه بعد العزى بن قطن فمن أدركه منكم فليقرأ عليه فواتح سورة الكهف ، إنه خارج خلة(٣) بين الشام والعراق، فعاث يمينا وعاث شمالا، ياعباد الله فاثبتوا. قلنا : يارسول الله وما لبثه فى الأرض؟ قال : أربعون يوما ، يوم كسنه، ويوم كشهر ويوم كجمعة، وسائر أيامه كأيامكم. قلنا : يارسول الله فذلك اليوم الذى كسنة أتكفينا صلاة يوم؟ ، قال : لا أقدروا قدره. قلنا : يارسول الله وما إسراعه فى الأرض؟ قال : كالغيث إذا استدبرته الريح، فيأتى على القوم فيدعوهم، فيؤمنون به ويستجيبون له، فيأمر السماء فتمطر والأرض فتنبت، فتروح عليهم سارحتهم(٤) أطول ما كانت ذرا واسبغه ضروعا، وأمده خواصر ، ثم يأتى القوم فيدعوهم فيردون عليه قوله، فينصرف عنهم فيصبحون ممحلين(٥) ليس بأيديهم شئ من أموالهم ، ويمر بالخربة فيقول لها: أخرجى كنوزك، فتتبعه كنوزها كيعاسيب النحل(٦) ثم يدعو رجلا ممتلئا شبابا، ليغزيه بالسيف فيقطعه جزلتين رمية الغرض(٧) ثم يدعوه فيقبل عليه ويتهلل وجه يضحك".

فبينما هو كذلك إذ بعث الله المسيح بن مريم، فينزل عند المنارة البيضاء شرقى دمشق بين مهرودتين(٨) واضعا كفيه على أجنحة ملكين، إذا

---

(١) جعد الشعر.

(٢) مرتفعة بارزة كأنها حبة عنب.

(٣) بينهما.

(٤) الماشية التى تسرح إلى المرعى.

(٥) ممحلين.

(٦) ذكور النحل .

(٧) أى بينهما مسافة رمية.

(٨) فى ثوبين مصبوغين بالزعفران.

طأطأ رأسه قطر وإذا رفعه تحدر منه جمان كاللؤلؤ فلا يحل(١) لكافر يجد ريح نفسه إلا مات، ونفسه ينتهى عند طرفه(٢) فيطلبه حتى يدركه بباب لد(٣) فيقتله، ثم يأتى عيسى بن مريم قوم قد عصمهم الله منه فيمسح عن وجوجهم، ويحدثهم بدرجاتهم فى الجنة، فبينما هو كذلك إذ أوحى الله إلى عيسى إنى قد أخرجت عبادا لى لا يدان(٤) لأحد بقتالهم فحرز عبادى إلى الطور، ويبعث الله يأجوج ومأجوج وهم من كل حدب ينسلون، فيمر أوائلهم على بحيرة طبرية فيشربون مافيها، ويمر آخرهم فيقولون لقد كان بهذه مرة ماء، ويحصر نبى الله عيسى وأصحابه حتى يكون رأس الثور لأحدهم خيرا من مائة دينار لأحدكم اليوم، فيرغب(٥) نبى الله عيسى وأصحابه، فيرسل الله عليهم النغف(٦) فى رقابهم فيصبحون فرسى(٧) كموت نفس واحدة، ثم يهبط نبى الله عيسى وأصحابه إلي الأرض فلا يجدون فى الأرض موضع شئ إلا ملأه زهمهم(٨) ونتنهم، فيرغب نبى الله عيسى وأصحابه إلى الله فيرسل الله طيرا كأعناق البخت(٩) فتطرحهم حيث شاء الله، ثم يرسل مطرا لا تكن(١٠) منه بيت مدر ولا وبر(١١) فيغسل الأرض حتى يتركها كالزلقة(١٢) ثم يقال للأرض انبتى ثمرتك، وردى بركتك، فيؤمئذ

---

(١) لايمكن ولا يقع.

(٢) بقدر مد بصره .

(٣) قرية قريبة من بيت المقدس.

(٤) لا قدرة.

(٥) يدعو ويضرع.

(٦) دود يكون فى أنوف الإبل والغنم وغيرها .

(٧) هلكى والمفرد فريس.

(٨) لحم منتن.

(٩) الإبل .

(١٠) تستر وتحفظ.

(١١) المدر الطين، والوبر الجلد أى أهل القرى وأهل البوادى.

(١٢) المرآة .

نأكل العصابة من الرمانة ويستظلون بقحفها[1]، ويبارك فى الرسل (اللبن حتى أن اللقحة من الإبل لتكفى الفام (الجماعة) من الناس، واللقحة من البقر لتكفى القبيلة من الناس، واللقحة من الغنم لتكفى الفخذ من الناس، فبينما هم كذلك إذ بعث الله ريحا طيبة فتأخذهم تحت آباطهم فتقبض روح كل مؤمن وكل مسلم، ويبقى شرار الناس يتهارجون[2] فيها تهارج الحمر فعليهم تقوم الساعة.

---

(١) قشرها.

(٢) يتضاجعون علانية

قصة أهل الكهف

قال تعالى :

﴿ أَمْ حَسِبْتَ أَنَّ أَصْحَابَ الْكَهْفِ وَالرَّقِيمِ كَانُوا مِنْ آيَاتِنَا عَجَبًا (٩)
إِذْ أَوَى الْفِتْيَةُ إِلَى الْكَهْفِ فَقَالُوا رَبَّنَا آتِنَا مِن لَّدُنكَ رَحْمَةً وَهَيِّئْ لَنَا مِنْ
أَمْرِنَا رَشَدًا (١٠) فَضَرَبْنَا عَلَىٰ آذَانِهِمْ فِي الْكَهْفِ سِنِينَ عَدَدًا (١١) ثُمَّ بَعَثْنَاهُمْ
لِنَعْلَمَ أَيُّ الْحِزْبَيْنِ أَحْصَىٰ لِمَا لَبِثُوا أَمَدًا (١٢) نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ نَبَأَهُم
بِالْحَقِّ إِنَّهُمْ فِتْيَةٌ آمَنُوا بِرَبِّهِمْ وَزِدْنَاهُمْ هُدًى (١٣) وَرَبَطْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ إِذْ
قَامُوا فَقَالُوا رَبُّنَا رَبُّ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ لَن نَّدْعُوَ مِن دُونِهِ إِلَهًا لَّقَدْ قُلْنَا إِذًا
شَطَطًا (١٤) هَؤُلاءِ قَوْمُنَا اتَّخَذُوا مِن دُونِهِ آلِهَةً لَّوْلا يَأْتُونَ عَلَيْهِم بِسُلْطَانٍ
بَيِّنٍ فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَىٰ عَلَى اللَّهِ كَذِبًا (١٥) وَإِذِ اعْتَزَلْتُمُوهُمْ وَمَا يَعْبُدُونَ
إِلاَّ اللَّهَ فَأْوُوا إِلَى الْكَهْفِ يَنشُرْ لَكُمْ رَبُّكُم مِّن رَّحْمَتِهِ وَيُهَيِّئْ لَكُم مِّنْ
أَمْرِكُم مِّرْفَقًا (١٦) وَتَرَى الشَّمْسَ إِذَا طَلَعَت تَّزَاوَرُ عَن كَهْفِهِمْ ذَاتَ الْيَمِينِ
وَإِذَا غَرَبَت تَّقْرِضُهُمْ ذَاتَ الشِّمَالِ وَهُمْ فِي فَجْوَةٍ مِّنْهُ ذَلِكَ مِنْ آيَاتِ اللَّهِ
مَن يَهْدِ اللَّهُ فَهُوَ الْمُهْتَدِ وَمَن يُضْلِلْ فَلَن تَجِدَ لَهُ وَلِيًّا مُّرْشِدًا (١٧)
وَتَحْسَبُهُمْ أَيْقَاظًا وَهُمْ رُقُودٌ وَنُقَلِّبُهُمْ ذَاتَ الْيَمِينِ وَذَاتَ الشِّمَالِ وَكَلْبُهُم
بَاسِطٌ ذِرَاعَيْهِ بِالْوَصِيدِ لَوِ اطَّلَعْتَ عَلَيْهِمْ لَوَلَّيْتَ مِنْهُمْ فِرَارًا وَلَمُلِئْتَ مِنْهُمْ
رُعْبًا (١٨) وَكَذَلِكَ بَعَثْنَاهُمْ لِيَتَسَاءَلُوا بَيْنَهُمْ قَالَ قَائِلٌ مِّنْهُمْ كَمْ لَبِثْتُمْ قَالُوا
لَبِثْنَا يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ قَالُوا رَبُّكُمْ أَعْلَمُ بِمَا لَبِثْتُمْ فَابْعَثُوا أَحَدَكُم بِوَرِقِكُمْ
هَذِهِ إِلَى الْمَدِينَةِ فَلْيَنظُرْ أَيُّهَا أَزْكَىٰ طَعَامًا فَلْيَأْتِكُم بِرِزْقٍ مِّنْهُ وَلْيَتَلَطَّفْ وَلا

يُشْعِرَنَّ بِكُمْ أَحَدًا (١٩) إِنَّهُمْ إِن يَظْهَرُوا عَلَيْكُمْ يَرْجُمُوكُمْ أَوْ يُعِيدُوكُمْ فِي مِلَّتِهِمْ وَلَن تُفْلِحُوا إِذًا أَبَدًا (٢٠) وَكَذَلِكَ أَعْثَرْنَا عَلَيْهِمْ لِيَعْلَمُوا أَنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ وَأَنَّ السَّاعَةَ لا رَيْبَ فِيهَا إِذْ يَتَنَازَعُونَ بَيْنَهُمْ أَمْرَهُمْ فَقَالُوا ابْنُوا عَلَيْهِم بُنْيَانًا رَّبُّهُمْ أَعْلَمُ بِهِمْ قَالَ الَّذِينَ غَلَبُوا عَلَىٰ أَمْرِهِمْ لَنَتَّخِذَنَّ عَلَيْهِم مَّسْجِدًا (٢١) سَيَقُولُونَ ثَلاثَةٌ رَّابِعُهُمْ كَلْبُهُمْ وَيَقُولُونَ خَمْسَةٌ سَادِسُهُمْ كَلْبُهُمْ رَجْمًا بِالْغَيْبِ وَيَقُولُونَ سَبْعَةٌ وَثَامِنُهُمْ كَلْبُهُمْ قُل رَّبِّي أَعْلَمُ بِعِدَّتِهِم مَّا يَعْلَمُهُمْ إِلاَّ قَلِيلٌ فَلا تُمَارِ فِيهِمْ إِلاَّ مِرَاءً ظَاهِرًا وَلا تَسْتَفْتِ فِيهِم مِّنْهُمْ أَحَدًا (٢٢) وَلا تَقُولَنَّ لِشَيْءٍ إِنِّي فَاعِلٌ ذَلِكَ غَدًا (٢٣) إِلاَّ أَن يَشَاءَ اللَّهُ وَاذْكُر رَّبَّكَ إِذَا نَسِيتَ وَقُلْ عَسَىٰ أَن يَهْدِيَنِ رَبِّي لأَقْرَبَ مِنْ هَذَا رَشَدًا (٢٤) وَلَبِثُوا فِي كَهْفِهِمْ ثَلاثَ مِائَةٍ سِنِينَ وَازْدَادُوا تِسْعًا (٢٥) ﴾ [سورة الكهف]

كان أصحاب الكهف فتية موحدين يعبدون الله سبحانه على دين عيسى عليه السلام مدة من الزمان حتى علم بهم ملك البلاد المشرك، فهددهم بالرجم حتى الموت إن لم يتركوا دينهم ويدخلوا في دينه، فتشاوروا فيما بينهم فأشار عليهم واحد منهم ولعله أميرهم وأمرهم باعتزال القوم ، والفرار إلى كهف من كهوف الصحراء يأويهم بعيدا عن هؤلاء المشركين ، والهجرة واجبة فرارا بالدين، فاتفقوا على ذلك، وخرجوا يطلبون من الله تعالى أن يتغمدهم برحمته، ويهيئ لهم من أمرهم رشدا في الدين والدنيا .

وقيل أنهم كانوا وزراء ، وقيل بل كانوا رعاة لاستصحابهم كلبا معهم. وقد كانوا فتية أشداء الأجسام، أقوياء الإيمان، أصحاب حكمة وعزيمة

أتقياء أنقياء كانوا على قلب رجل واحد زادهم الله هدى وثبت قلوبهم على كلمة التوحيد، وهم وسط بيئة مشركة وكان ملكهم يسمى دقيانوس أو دقلديانوس.

خرجوا يطلبون النجاة بدينهم إلى جبل بعيد يبحثون عن كهف وربما كانوا يعرفونه من قبل. ولما دخلوا إلى الكهف ألقي الله عليهم النوم فناموا ثلاثمائة سنة وتسعا بالتقويم الهجرى ما يعادل ثلاثمائة سنة بالتقويم الشمسى الميلادى لأن السنة القمرية أقل من السنة الشمسية بأحد عشر يوما وكل ثلاثة وثلاثين سنة شمسية تعادل أربعة وثلاثين سنة قمرية.

أبنائى الأعزاء:

السنة الشمسية تعادل ربع ٣٦٥ يوما والشهر فى تلك السنة إما ثلاثون يوما أو واحد وثلاثون وفبراير إما ٢٨ يوما أو تسعة وعشرون. والشهر القمرى إما ٢٩ أو ثلاثون.

والأزمنة تختلف حسب الأماكن وبعض الكواكب يكون اليوم فيها أطول من السنة .

وفى الآخرة يختلف الزمن فهناك يوم كألف سنة ويوم كخمسين ألف سنة بل إنه فى آخر الزمان وعند خروج الدجال سيكون هناك يوم كسنة ويوم كشهر ويوم كأسبوع كما أخبر بذلك رسول الله ﷺ.

أبنائى الأعزاء:

بعث الله تعالى أهل الكهف بعد هذه المدة الطويلة وأيقظهم من رقادهم الذى يشبه الموت من حيث طول مدته والسكون التام وعدم سماع الأصوات إلا أنهم كانوا يتقلبون على جنوبهم برحمة من الله تعالى حتى لا تأكل الأرض أجسادهم إذ تباطأت الدورة الدموية فى أجسادهم. وقد هيئ الله تعالى لهم سبل الحماية ووفر لهم الجو الملائم بهذا الرقاد الطويل . كما سنعرفه بعد قليل.

أرسل الفتية واحدا منهم إلى المدينة ، ليأتيهم بطعام حلال بما معه من دراهم فضية. وهناك أطعمة محرمة كالميتة والدم ولحم الخنزير وما أهل لغير الله به أى ما ذبح على اسم غير اسم الله تعالى، وكذلك لحوم السباع من الحيوان والطير وغير ذلك، وهم لتقواهم أمروا من بعثوه لشراء الطعام أن يتحرى لهم الطعام الحلال، وأمروه أن يتخفى ولا يشعر به أحد فلا يتعارف مع أحد ولا يجادل أحدا ولا يأتى بأمر يلفت إليه وإليهم الأنظار وذكروه وذكروا أنفسهم بأنهم إذا ظفروا بهم رجموهم أو فتنوهم فى دينهم وعذبوهم ليدخلوا فى دين الشرك وعبادة الأوثان وعند ذلك لا يفلحوا بعدها أبدا إن هم وقعوا فى الفتنة.

ولما أتى المدينة وجد كل شئ قد تغير فيها وكأنه فى مدينة غير التى كان يعرفها ويعيش فيها. وجد وجوها مختلفة ووجد تغير الطرق والشوارع والأبنية والأسواق. ولم يجد أثرا للأصنام والأوثان.

رأى الناس قد تغيروا ، ذهبت عبادة الأوثان وصار الناس موحدين.

ولما دفع الدراهم الفضية لأحد البائعين جمع حوله الناس وقال له لابد أنك عثرت على كنز أثرى، لأن هذه العملة مر عليها أكثر من ثلاثة قرون، ووصل الخبر إلى الشرطة ثم إلى حاكم البلاد.

أجرى تحقيق مع الرجل وعرف منه خبر أهل الكهف ولم يكن هو نفسه يعرف أنه نام هو وإخوانه ثلاثمائة سنة، فلم يكن ذلك أمرا معتادا وأقصى ما ينامه الإنسان يوما أو بعض يوم، وهم عندما استيقظوا لم يجدوا فى هيئتهم شيئا قد تغير، لم يجدوا أظفارهم طويلة، ولم يجدوا لحاهم قد طالت ولم يروا أن شعرهم قد ابيض كل ذلك لم يحدث.

كان ملك البلاد فى ذلك الوقت مسلما موحدا على دين عيسى عليه السلام، فأكرم الرجل وقام معه إلى الكهف ليرى بقية الاخوة الصالحين ليحتفى بهم ويلتمس منهم البركة، فاستبقاه الفتى ليستأذن له من إخوانه حتى لا يفجأهم ويظنوا أنهم مقبوض عليهم، فلما انتهى إليهم وأخبرهم بخبره، خافوا على أنفسهم من الغرور، وخافوا أن يفتن الناس بهم ويغالوا فيهم كما غالى قوم فى عيسى عليه السلام واتخذوه إلها مع الله تعالى ، فسألوا الله أن يقبض أرواحهم، فاستجاب الله لهم، فدخل القوم إلى الغار فوجدوهم موتى فتشاوروا فى أمرهم فقال قوم نبنى عليهم بنيانا أى ضريحا يزار، وقال أصحاب الكلمة النافذة وهم الحكام نبنى مسجدا أى معبدا على كهفهم. فبنوا المسجد وكتبوا رقيما (لوحة) ذكروا فيه أسمائهم، فعرفوا بأصحاب الكهف والرقيم.

وقد بينت الآيات الأولى من سورة الكهف عدة أصحاب الكهف والمدة

التى لبثوها (مكثوها) فى الغار ولم تذكر اسم بلدهم ولا زمانهم ولا أسماء الملوك المعاصرين لهم.

أبنائى الأعزاء:

يحتج القبوريون ببناء المسجد على أهل الكهف ليوهموا الناس أن بناء الأضرحة وبناء المساجد على القبور مشروع وهذا خطأ ومخالفة صريحة لشريعة الإسلام.

فشرع من قبلنا شرع لنا إذا لم يخالف شرعنا وهذا الفعل يخالف شرعنا فقد قال رسول الله ﷺ لعن الله اليهود والنصارى اتخذوا قبور أنبيائهم مساجد وغير ذلك من الأحاديث التى وردت فى كتب السنة تنهى عن دفن الموتى فى المساجد وتنهى عن إقامة المساجد على القبور حتى لايكون ذلك سببا فى وقوع الناس فى الشرك وتعظيم الموتى وتوجيه العبادة لهم.

قال تعالى : وأن المساجد لله فلا تدعو مع الله أحداً . وقد كان السجود لغير الله مباحا فى أمم قبلنا وحرم علينا. يقول تعالى فى سورة يوسف ﴿ ورفع أبويه على العرش وخروا له سجدا ﴾ الآية.

وقد حكت الآيات فى أوائل سورة الكهف قصة أهل الكهف باختصار من قوله تعالى : ﴿ أم حسبت ﴾ إلى قوله : ﴿ نحن نقص عليك نبأهم بالحق ﴾ ثم رويت القصة بتفصيل فى الآيات التالية.

وقصة أهل الكهف فيها من الدروس والعبر الكثير حيث تعلم فيها

الصحابة وجوب الهجرة والفرار بالدين إذا ضيق السبل على المؤمنين وفيها التذكير بقدرة الله تعالى وإحياء الموتى وبعث من في القبور وجواز أن يدعو المؤمن على نفسه بالموت فى أوقات الفتن، وأن أغلى شئ يحرص عليه المؤمن هو دين الله يضحى من أجله بالمال والأهل والوطن لأن هؤلاء الفتية تركوا وطنهم ومناصبهم وأهليهم فى سبيل الحفاظ على دينهم وعقيدتهم.

القصة بالتفصيل

قال تعالى تعالى :

﴿ أَمْ حَسِبْتَ أَنَّ أَصْحَابَ الْكَهْفِ وَالرَّقِيمِ كَانُوا مِنْ آيَاتِنَا عَجَبًا (٩) ﴾ [الكهف]. سمع الرسول ﷺ والصحابة هذه القصة من بعض المشركين الذين تلقوها من أهل الكتاب فأعجبوا بها وبغرابتها، والمعنى أظننت يا محمد أن أمر أصحاب الكهف هو العجب الذى ليس بعده عجب، وأنت تعلم أن امر الله فى خلقه كله عجب، وأن آيات الله أكثر من أن تحصى ومنها ماهو أعجب من هذه الآية.

﴿ إِذْ أَوَى الْفِتْيَةُ إِلَى الْكَهْفِ فَقَالُوا رَبَّنَا آتِنَا مِن لَّدُنكَ رَحْمَةً وَهَيِّئْ لَنَا مِنْ أَمْرِنَا رَشَدًا (١٠) ﴾ [الكهف]

إنهم شباب عرفوا الله وآمنوا به وخصوه بالعبادة وحده، وأخلصوا له الطاعة، فاعتزلوا قومهم الذين كانوا يعبدون الأوثان، ولجأوا إلى كهف فى جبل فرارا بدينهم ثم دعوا الله دعوة صالحة آتنا من عندك رحمة وهيئ وجهر لنا الرشاد والهداية فى أمرنا .

ثم يخبر الله تعالى أنه ضرب على آذانهم في الكهف سنين عددا أى أعواما طويلة منع السمع عن آذانهم لأن حاسة السمع وهى الأذن تسمع بطريقة غير إرادية فإذا سمعوا أصوات الرياح وهطول الأمطار وعواء الذئاب ونباح الكلاب وزئير الأسود وغيرها من الأصوات تيقظوا كما كانوا يتقبلون بطريقة لا إرادية، وحجب الله تعالى عنهم وهج الشمس (شعاعها) لتظل أجسامهم حية.

﴿ثُمَّ بَعَثْنَاهُمْ لِنَعْلَمَ أَيُّ الْحِزْبَيْنِ أَحْصَىٰ لِمَا لَبِثُوا أَمَدًا (١٢) نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ نَبَأَهُم بِالْحَقِّ إِنَّهُمْ فِتْيَةٌ آمَنُوا بِرَبِّهِمْ وَزِدْنَاهُمْ هُدًى (١٣) وَرَبَطْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ إِذْ قَامُوا فَقَالُوا رَبُّنَا رَبُّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ لَن نَّدْعُوَ مِن دُونِهِ إِلَٰهًا لَّقَدْ قُلْنَا إِذًا شَطَطًا (١٤) هَٰؤُلَاءِ قَوْمُنَا اتَّخَذُوا مِن دُونِهِ آلِهَةً لَّوْلَا يَأْتُونَ عَلَيْهِم بِسُلْطَانٍ بَيِّنٍ فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَىٰ عَلَى اللَّهِ كَذِبًا (١٥) وَإِذِ اعْتَزَلْتُمُوهُمْ وَمَا يَعْبُدُونَ إِلَّا اللَّهَ فَأْوُوا إِلَى الْكَهْفِ يَنشُرْ لَكُمْ رَبُّكُم مِّن رَّحْمَتِهِ وَيُهَيِّئْ لَكُم مِّنْ أَمْرِكُم مِّرْفَقًا (١٦) وَتَرَى الشَّمْسَ إِذَا طَلَعَت تَّزَاوَرُ عَن كَهْفِهِمْ ذَاتَ الْيَمِينِ وَإِذَا غَرَبَت تَّقْرِضُهُمْ ذَاتَ الشِّمَالِ وَهُمْ فِي فَجْوَةٍ مِّنْهُ ذَٰلِكَ مِنْ آيَاتِ اللَّهِ مَن يَهْدِ اللَّهُ فَهُوَ الْمُهْتَدِ وَمَن يُضْلِلْ فَلَن تَجِدَ لَهُ وَلِيًّا مُّرْشِدًا (١٧) وَتَحْسَبُهُمْ أَيْقَاظًا وَهُمْ رُقُودٌ وَنُقَلِّبُهُمْ ذَاتَ الْيَمِينِ وَذَاتَ الشِّمَالِ وَكَلْبُهُم بَاسِطٌ ذِرَاعَيْهِ بِالْوَصِيدِ لَوِ اطَّلَعْتَ عَلَيْهِمْ لَوَلَّيْتَ مِنْهُمْ فِرَارًا وَلَمُلِئْتَ مِنْهُمْ رُعْبًا (١٨) وَكَذَٰلِكَ بَعَثْنَاهُمْ لِيَتَسَاءَلُوا بَيْنَهُمْ قَالَ قَائِلٌ مِّنْهُمْ كَمْ لَبِثْتُمْ قَالُوا لَبِثْنَا يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ قَالُوا رَبُّكُمْ أَعْلَمُ بِمَا لَبِثْتُمْ فَابْعَثُوا

أَحَدَكُم بِوَرِقِكُمْ هَذِهِ إِلَى الْمَدِينَةِ فَلْيَنظُرْ أَيُّهَا أَزْكَىٰ طَعَامًا فَلْيَأْتِكُم بِرِزْقٍ مِّنْهُ وَلْيَتَلَطَّفْ وَلا يُشْعِرَنَّ بِكُمْ أَحَدًا (١٩) إِنَّهُمْ إِن يَظْهَرُوا عَلَيْكُمْ يَرْجُمُوكُمْ أَوْ يُعِيدُوكُمْ فِي مِلَّتِهِمْ وَلَن تُفْلِحُوا إِذًا أَبَدًا (٢٠) وَكَذَلِكَ أَعْثَرْنَا عَلَيْهِمْ لِيَعْلَمُوا أَنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ وَأَنَّ السَّاعَةَ لا رَيْبَ فِيهَا إِذْ يَتَنَازَعُونَ بَيْنَهُمْ أَمْرَهُمْ فَقَالُوا ابْنُوا عَلَيْهِم بُنْيَانًا رَّبُّهُمْ أَعْلَمُ بِهِمْ قَالَ الَّذِينَ غَلَبُوا عَلَىٰ أَمْرِهِمْ لَنَتَّخِذَنَّ عَلَيْهِم مَّسْجِدًا (٢١) ﴾ [الكهف]

يخبر الله تعالى عن بعثهم من رقادهم الطويل الذى يشبه الموت ، فيعلم من يجادل فى أمرهم أن الحق ما حكاه القرآن، لا ما جاء به أحبار اليهود ورهبان النصارى الذين حرفوا كتبهم.

يقول تعالى :

﴿ نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ نَبَأَهُم بِالْحَقِّ إِنَّهُمْ فِتْيَةٌ آمَنُوا بِرَبِّهِمْ وَزِدْنَاهُمْ هُدًى (١٣) ﴾ [الكهف]

أى أن هؤلاء الفتية عرفوا ربهم وآمنوا به لسلامة عقولهم ونقاء فطرتهم وطهارة قلوبهم رغم شبابهم وكثير من الشباب تلهيهم الدنيا بزخارفها وزينتها، فلما أخلصوا العبادة لله وتبرأوا من الشرك والمشركين زادهم الله هدى ونجاهم من القوم الظالمين وأثنى عليهم فى القرآن ورفع ذكرهم إلي يوم الدين .

ويسجل القرآن ما دار بينهم من حوار يكشف إصرارهم على التمسك بدينهم الحق، ويكشف ما سجل فى قلوبهم من الإيمان والتوحيد،

والحجة التى واجهوا بها قومهم، وما استقر عليه عزمهم من الاحتفاظ بسلامة عقيدتهم ، ووقاية أنفسهم من قومهم الذين دبروا لقتلهم إن لم يدخلوا فى دينهم.

قال تعالى :

﴿ وَرَبَطْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ إِذْ قَامُوا فَقَالُوا رَبُّنَا رَبُّ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ لَن نَّدْعُوَ مِن دُونِهِ إِلَهًا لَّقَدْ قُلْنَا إِذًا شَطَطًا (١٤) هَؤُلاءِ قَوْمُنَا اتَّخَذُوا مِن دُونِهِ آلِهَةً لَّوْلا يَأْتُونَ عَلَيْهِم بِسُلْطَانٍ بَيِّنٍ فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَىٰ عَلَى اللَّهِ كَذِبًا (١٥) وَإِذِ اعْتَزَلْتُمُوهُمْ وَمَا يَعْبُدُونَ إِلاَّ اللَّهَ فَأْوُوا إِلَى الْكَهْفِ يَنشُرْ لَكُمْ رَبُّكُم مِّن رَّحْمَتِهِ وَيُهَيِّئْ لَكُم مِّنْ أَمْرِكُم مِّرْفَقًا (١٦) ﴾ [الكهف]

وقوله تعالى :﴿ وَرَبَطْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ ﴾ : ألهمناهم الصبر وثبتناها حين قاموا عند ملكهم فجهروا بعقيدتهم ولم يخشوا بطشه، فقالوا : ربنا رب السموات والأرض لن نعبد غيره، ولو قلنا غير ذلك لظلمنا أنفسنا ولكنا مفترين الكذب على الله. فأنذرهم الملك مدة يراجعوا فيها أنفسهم فتشاوروا فيما بينهم وقالوا: هؤلاء قومنا قد سلكوا طرائق الكفر، وعبدوا من دون الله أوثانا لا تنفع ولا تضر، ولا تسمع ولا تبصر، هلا جاءوا على تأليهها بحجة بينة، فليس هناك فى الوجود أظلم ممن كذب على الله واعتقد أن العبادة لا تصل إليه إلا بواسطة.

قرروا أن يعتزلوا القوم بأجسادهم كما اعتزلوهم فى معتقدهم وأن يأتوا إلى الكهف، لينشر لهم ربهم سحائب رحمته بعيدا عن الكافر، ويهيئ لهم ما ينفعهم فى الدنيا والآخرة.

الفتية فى الكهف:

ألقى النوم الطويل على الفتية فى الكهف ، والشمس تتباعد عن كهفهم ناحية اليمين، وعند الغروب تمسهم مسا خفيفا، وكلبهم باسط ذراعيه بفناء الكهف، وتقلب أجسادهم ذات اليمين وذات الشمال، وعيونهم مفتوحة كأنهم يقظى، ومن نظر إليهم امتلأ قلبه رعبا من منظرهم، وهذا من حفظ الله تعالى لهم، وهم فى مكان منخفض فى الكهف لا يزعجهم حر الشمس ورغم أنها تمس الكهف مساً خفيفاً.

يقول تعالى :

﴿ وَتَرَى الشَّمْسَ إِذَا طَلَعَت تَّزَاوَرُ عَن كَهْفِهِمْ ذَاتَ الْيَمِينِ وَإِذَا غَرَبَت تَّقْرِضُهُمْ ذَاتَ الشِّمَالِ وَهُمْ فِي فَجْوَةٍ مِّنْهُ ذَلِكَ مِنْ آيَاتِ اللَّهِ مَن يَهْدِ اللَّهُ فَهُوَ الْمُهْتَدِ وَمَن يُضْلِلْ فَلَن تَجِدَ لَهُ وَلِيًّا مُّرْشِدًا (١٧) وَتَحْسَبُهُمْ أَيْقَاظًا وَهُمْ رُقُودٌ وَنُقَلِّبُهُمْ ذَاتَ الْيَمِينِ وَذَاتَ الشِّمَالِ وَكَلْبُهُم بَاسِطٌ ذِرَاعَيْهِ بِالْوَصِيدِ لَوِ اطَّلَعْتَ عَلَيْهِمْ لَوَلَّيْتَ مِنْهُمْ فِرَارًا وَلَمُلِئْتَ مِنْهُمْ رُعْبًا (١٨) ﴾[الكهف]

ذلك من آيات الله، ولكن لا يهتدى لآيات الله وينتفع بها إلا من أراد الله له الهداية، ومن يضلله فلن تجد له من يتولاه بعنايته ويرشده إلي السعادة.

يقظة أهل الكهف:

يقول تعالى:

﴿ وَكَذَلِكَ بَعَثْنَاهُمْ لِيَتَسَاءَلُوا بَيْنَهُمْ قَالَ قَائِلٌ مِّنْهُمْ كَمْ لَبِثْتُمْ قَالُوا لَبِثْنَا يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ قَالُوا رَبُّكُمْ أَعْلَمُ بِمَا لَبِثْتُمْ فَابْعَثُوا أَحَدَكُم بِوَرِقِكُمْ هَذِهِ إِلَى الْمَدِينَةِ فَلْيَنظُرْ أَيُّهَا أَزْكَىٰ طَعَامًا فَلْيَأْتِكُم بِرِزْقٍ مِّنْهُ وَلْيَتَلَطَّفْ وَلا يُشْعِرَنَّ بِكُمْ أَحَدًا (١٩) إِنَّهُمْ إِن يَظْهَرُوا عَلَيْكُمْ يَرْجُمُوكُمْ أَوْ يُعِيدُوكُمْ فِي مِلَّتِهِمْ وَلَن تُفْلِحُوا إِذًا أَبَدًا (٢٠) ﴾ [الكهف]

قوله وكذلك: أى مثلما أنمناهم وحفظنا أجسادهم من التحلل والبلى بعثناهم من نومهم ليصير حالهم بعد اليقظة إلي ما كانوا عليه كهيئتهم قبل النوم وعبر القرآن بقوله بعثناهم وذلك لأن نومهم كان يشابه الموت من حيث طول مدته التى بلغت ثلاثمائة سنة وهذا غير معتاد. فيسأل بعضهم بعضا عن مدة لبثهم فلا يعرف واحد منهم كم لبثوا (مكثوا)، فقالوا لبثنا يوما أو بعض يوم لأن هذا هو المعتاد فى النوم.

ثم ينهوا هذا الجدل الذى لا طائل وراءه ويبعثوا أحدهم بالعملات الفضية ليشترى لهم طعاما طيبا حلالا، ويأمرونه بالتلطف والاستتار حتى لا يعثر عليهم قومهم الكافرون فيرجمونهم بالحجارة حتى الموت أو يفتنوهم عن دينهم فيعيدوهم فى ملتهم الباطلة ولن يفلحوا إذا أبدا فى الدنيا والآخرة إذا دخلوا فى ملة الشرك والضلال.

ولم يعلموا أن ملكهم الظالم قد مات وراحت دولة الكفر وجاء قوم

مسلمون وتغيرت المدينة وتعاقبت الأجيال ومات معاصروهم وولدت أجيال وراء أجيال، وأن قصتهم قد تناقلها الخلف عن السلف.

وظلوا فى الكهف ينتظرون الطعام يأتيهم مع صاحبهم وهم لا يعلمون شيئا عما يجرى خارج الكهف ما تعرض له صاحبهم من ملاقاته لقوم آخرين ومدينة جديدة، وانكشاف أمرهم وما جرى عليهم من الكرامات وخوارق العادات، وما أخبر الله تعالى به نبيه عن عدتهم وعتابه له ﷺ على أنه وعد القوم أن يخبرهم بقصة الفتية ونسى أن يقدم المشيئة.

يقول تعالى:

﴿ وَكَذَلِكَ أَعْثَرْنَا عَلَيْهِمْ لِيَعْلَمُوا أَنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ وَأَنَّ السَّاعَةَ لا رَيْبَ فِيهَا إِذْ يَتَنَازَعُونَ بَيْنَهُمْ أَمْرَهُمْ فَقَالُوا ابْنُوا عَلَيْهِم بُنْيَانًا رَّبُّهُمْ أَعْلَمُ بِهِمْ قَالَ الَّذِينَ غَلَبُوا عَلَىٰ أَمْرِهِمْ لَنَتَّخِذَنَّ عَلَيْهِم مَّسْجِدًا (٢١) سَيَقُولُونَ ثَلاثَةٌ رَّابِعُهُمْ كَلْبُهُمْ وَيَقُولُونَ خَمْسَةٌ سَادِسُهُمْ كَلْبُهُمْ رَجْمًا بِالْغَيْبِ وَيَقُولُونَ سَبْعَةٌ وَثَامِنُهُمْ كَلْبُهُمْ قُل رَّبِّي أَعْلَمُ بِعِدَّتِهِم مَّا يَعْلَمُهُمْ إِلاَّ قَلِيلٌ فَلا تُمَارِ فِيهِمْ إِلاَّ مِرَاءً ظَاهِرًا وَلا تَسْتَفْتِ فِيهِم مِّنْهُمْ أَحَدًا (٢٢) وَلا تَقُولَنَّ لِشَيْءٍ إِنِّي فَاعِلٌ ذَلِكَ غَدًا (٢٣) إِلاَّ أَن يَشَاءَ اللَّهُ وَاذْكُر رَّبَّكَ إِذَا نَسِيتَ وَقُلْ عَسَىٰ أَن يَهْدِيَنِ رَبِّي لأَقْرَبَ مِنْ هَذَا رَشَدًا (٢٤) وَلَبِثُوا فِي كَهْفِهِمْ ثَلاثَ مِائَةٍ سِنِينَ وَازْدَادُوا تِسْعًا (٢٥) قُلِ اللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا لَبِثُوا لَهُ غَيْبُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ أَبْصِرْ بِهِ وَأَسْمِعْ مَا لَهُم مِّن دُونِهِ مِن وَلِيٍّ وَلا يُشْرِكُ فِي حُكْمِهِ أَحَدًا (٢٦) ﴾ [سورة الكهف]

كان بعثهم من رقادهم الطويلة دلالة على صدق أخبار البعث يوم القيامة ليعلم أولو الألباب أن الساعة آتية لا شك فيها.

وعبر القرآن عما دار بين القوم فى شأن الفتية بالتنازع، وأن هناك غالبا ومغلوبا وأن الذين قرروا ونفذوا بناء المسجد فوقهم هم أهل الغلبة أى أهل القوة والنفوذ والسلطان وليس أهل اعلم كما يزعم من يقدسون القبور. وقد ذكرنا فى أول القصة حديث رسول الله ﷺ "لعن الله اليهود والنصارى اتخذوا قبور أنبيائهم وصالحيهم مساجد " والحديث رواه البخارى فى كتاب الجنائز، ومسلم فى كتاب المساجد .

عدة أهل الكهف:

كشف الله تعالى عن عدتهم فوصف القولين الأولين بأنهما رجم بالغيب أى تهجم على الغيب الذى لا يعلمه إلا الله، وذكر سبحانه القول الثالث من غير تعليق، أى أنه يقره، وفصل بين الفتية وكلبهم بواو العطف كما أن ذكر واو العطف بعد رقم سبعة هو قاعدة لغوية.

ونهى ربنا عز وجل عن استفتاء أهل الكتاب فى عدتهم، ونهى عن الجدل فى أمر الغيب المستقبل كما نهى عن الجدل فى أمر الغيب الماضى.

ثم يأمر الله تعالى رسوله أن يذكره إذا نسى شيا أو نسى أن يذكر المشيئة وأن يقول عسى أن يهدنى ربى إلى ماهو أقرب رشادا وأعظم أثرا وأبلغ عبرة من أصحاب الكهف ، فآيات الله لا تنتهى وتوفيقه لأهل الإيمان والتوكل والذكر لا ينقطع.

وليعلم أهل الكتاب من اليهود والنصارى أن محمدا ﷺ يتلقى الوحى من ربه وإلا فمن أين علم مدة لبثهم والفرق بين السنين الشمسية والقمرية ولم يدرس علم الفلك ولا الحساب ولم يقرأ أو يكتب ويختم الله تعالى قصتهم بقوله عز وجل :

﴿ لَهُ غَيْبُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ أَبْصِرْ بِهِ وَأَسْمِعْ مَا لَهُم مِّن دُونِهِ مِن وَلِيٍّ وَلا يُشْرِكُ فِي حُكْمِهِ أَحَدًا (٢٦) ﴾ [الكهف]

أى هذا فصل الخطاب فى قصة أهل الكهف يخبر به عالم غيب السموات والأرض ما أبصره، وما أسمعه ! سبحانه ليس للخلق ولى ناصر غيره سبحانه وتعالى ، وهو إله واحد لا إله سواه ولا رب غيره ولا شريك فى حكمه ولا نظير له ولا وزير ولا مشير ولا معقب لحكمه لا يعارضه معارض ولا يسأل عما يفعل سبحانه وتعالى.

أبنائى الأعزاء:

لعلكم خرجتم من هذه القصة الشيقة بدروس وعبر وعلمتم منها رحمة الله بعبادة المخلصين وحفظه لهم وقدرته ومشيئته التى لا يمانعها مانع، وقدرة الله تعالى على بعث الموتى وإخراج من فى القبور وأن الساعة آتية لاشك فيها وأنه لا إله غيره ولا رب سواه وأنه لا يفلح الظالمون.

وقصص القرآن هو القصص الحق وهو أحسن القصص.

قصة صاحب الجنتين

وأصحاب الجنة

قال تعالى : ﴿ وَاضْرِبْ لَهُم مَّثَلاً رَّجُلَيْنِ جَعَلْنَا لأَحَدِهِمَا جَنَّتَيْنِ مِنْ أَعْنَابٍ وَحَفَفْنَاهُمَا بِنَخْلٍ وَجَعَلْنَا بَيْنَهُمَا زَرْعًا (٣٢) كِلْتَا الْجَنَّتَيْنِ آتَتْ أُكُلَهَا وَلَمْ تَظْلِم مِّنْهُ شَيْئًا وَفَجَّرْنَا خِلالَهُمَا نَهَرًا (٣٣) وَكَانَ لَهُ ثَمَرٌ فَقَالَ لِصَاحِبِهِ وَهُوَ يُحَاوِرُهُ أَنَا أَكْثَرُ مِنكَ مَالاً وَأَعَزُّ نَفَرًا (٣٤) وَدَخَلَ جَنَّتَهُ وَهُوَ ظَالِمٌ لِّنَفْسِهِ قَالَ مَا أَظُنُّ أَن تَبِيدَ هَذِهِ أَبَدًا (٣٥) وَمَا أَظُنُّ السَّاعَةَ قَائِمَةً وَلَئِن رُّدِدتُّ إِلَىٰ رَبِّي لأَجِدَنَّ خَيْرًا مِّنْهَا مُنقَلَبًا (٣٦) قَالَ لَهُ صَاحِبُهُ وَهُوَ يُحَاوِرُهُ أَكَفَرْتَ بِالَّذِي خَلَقَكَ مِن تُرَابٍ ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ ثُمَّ سَوَّاكَ رَجُلاً (٣٧) لَّكِنَّا هُوَ اللَّهُ رَبِّي وَلا أُشْرِكُ بِرَبِّي أَحَدًا (٣٨) وَلَوْلا إِذْ دَخَلْتَ جَنَّتَكَ قُلْتَ مَا شَاءَ اللَّهُ لا قُوَّةَ إِلاَّ بِاللَّهِ إِن تَرَنِ أَنَا أَقَلَّ مِنكَ مَالاً وَوَلَدًا (٣٩) فَعَسَىٰ رَبِّي أَن يُؤْتِيَنِي خَيْرًا مِّن جَنَّتِكَ وَيُرْسِلَ عَلَيْهَا حُسْبَانًا مِّنَ السَّمَاءِ فَتُصْبِحَ صَعِيدًا زَلَقًا (٤٠) أَوْ يُصْبِحَ مَاؤُهَا غَوْرًا فَلَن تَسْتَطِيعَ لَهُ طَلَبًا (٤١) وَأُحِيطَ بِثَمَرِهِ فَأَصْبَحَ يُقَلِّبُ كَفَّيْهِ عَلَىٰ مَا أَنفَقَ فِيهَا وَهِيَ خَاوِيَةٌ عَلَىٰ عُرُوشِهَا وَيَقُولُ يَا لَيْتَنِي لَمْ أُشْرِكْ بِرَبِّي أَحَدًا (٤٢) وَلَمْ تَكُن لَّهُ فِئَةٌ يَنصُرُونَهُ مِن دُونِ اللَّهِ وَمَا كَانَ مُنتَصِرًا (٤٣) هُنَالِكَ الْوَلايَةُ لِلَّهِ الْحَقِّ هُوَ خَيْرٌ ثَوَابًا وَخَيْرٌ عُقْبًا (٤٤) ﴾ [الكهف]

هذه الآيات تروى قصة رجلين ، أحدهما كافر قد أبطرته نعمة المال ففرح بها وتكبر وبغى وظلم، فكان من الخاسرين والآخر رجل مؤمن بالله، يحب الآخرة، ولا يتعلق قلبه بالدنيا، قد رزقه الله القناعة والرضا . أدى اجبه

في نصح صاحبه إلي الإيمان بالله وتوحيده وشكر نعمته وبذل حق المال للفقراء فأبى وعاند، ورفض يقول الله مفتراً بحاله معتزا بولده.

فحذره المؤمن عاقبة الكفر والجحود، فأنزل الله تعالى وصاعقة من السماء أحرقت بساتينه ولم ينفعه صديق ولا ناصر ولا ولد ولا جاه فليس لأمر الله دافع ولا راد لأمره ولا معقب لحكمه.

في هذين المثلين عظة وعبرة أحد المثلين لكافر والآخر لمؤمن.

كان الكافر يعتز بماله وولده وجاهه وكثرة أتباعه وقوته وسلطانه، وينكر البعث والنشور ويكذب بالقيامة، يكفر بالذى خلقه من تراب ثم من نطفة ثم سواه رجلا. ولم يتحول عن كفره وضلاله رغم إسداء النصح له وبيان وجه الحق فى العقيدة والسلوك، فأصر واستكبر ومنع حق السائل والمحروم بل سخر من الفقراء والمساكين ومنهم قريبه المؤمن الفقير وزعم أنه مستحق لهذا الثراء والغنى والبساتين والثمار والأولاد والسلطان وأن هذا حق خالص له لا يزول ولا يتحول وقال لو فرض أن الساعة قامت ولو فرض أنه رد إلى ربه وبعث بعد موته فسيجد عنده أعظم من ذلك وأكثر وكأنه أخذ على ربه عهدا بذلك أو أنه يحدد مصيره بنفسه وعلى الرغم من كفره.

أما الآخر فكان مؤمنا بربه واثقا من فضله متمسكا بعقيدته، يطلب مرضاته، ويؤدى ما عليه من واجبات الحمد والشكر لله معترفا بنعمه قانعا برزقه ، لا يحسد غيره، ويرى المال عرضا زائلا، وأن ما عند الله خير وأبقى، يؤدى واجب الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر، ويدعو إلى الله على

بصيرة بالحكمة والموعظة الحسنة، يذكر الكافر بمبدأ خلقه، ويؤنبه على كفره، ويذكره بعاقبة جحوده، ويخوفه عقاب الله فى الدنيا والآخرة، وينبهه إلى إمكان زوال ماله ونقله من الغنى إلي الفقر، مذكرا إياه بقدرة الله تعالى وانتقامه وبطشه، ويدعوه إلى حمد الله وشكره، وأن مافيه من نعمة فمن الله، وليست من قبل نفسه، يحاوره محاورة هادئة، ويجادله بالتى هى أحسن.

وهذان الرجلان كانا من بنى إسرائيل وهما أولاد عم، كان صاحب الجنتين لا يعطف على الفقراء بينما صاحبه يخرج الصدقات والزكوات فكان صاحب الجنتين يوبخه ويلومه على سخائه وكرمه ويعيره بأنه أكثر منه مالا وولدا، ويزعم أن ماله باق لا يزول لأنه لا يعطى منه فقيرا ولا مسكينا .

وهذا المثل مضروب لكفار مكة خاصة ولمن كان علي مثالهم ويعمل عملهم. فقد كانوا يفخرون على المؤمنين بكثرة أموالهم وأولادهم، وينكرون البعث، ويعيرون الفقراء بفقرهم ويستقذرونهم، ويتكبرون عليهم وينفرون من مجالستهم ويمنعون حقهم فى الصدقة والزكاة.

﴿ وَقَالُوا نَحْنُ أَكْثَرُ أَمْوَالاً وَأَوْلاداً وَمَا نَحْنُ بِمُعَذَّبِينَ (٣٥) ﴾ [سبأ]

وكانوا يقولون كما حكى عنهم القرآن فى سورة يس : ﴿ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ أَنفِقُوا مِمَّا رَزَقَكُمُ اللَّهُ قَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلَّذِينَ آمَنُوا أَنُطْعِمُ مَن لَّوْ يَشَاءُ اللَّهُ أَطْعَمَهُ إِنْ أَنتُمْ إِلاَّ فِي ضَلالٍ مُّبِينٍ (٤٧) ﴾ [يس]

وكما حكاه القرآن فى سورة الفجر: ﴿ فَأَمَّا الإِنسَانُ إِذَا مَا ابْتَلاهُ رَبُّهُ فَأَكْرَمَهُ وَنَعَّمَهُ فَيَقُولُ رَبِّي أَكْرَمَنِ (١٥) وَأَمَّا إِذَا مَا ابْتَلاهُ فَقَدَرَ عَلَيْهِ رِزْقَهُ فَيَقُولُ رَبِّي أَهَانَنِ (١٦) كَلاَّ بَل لاَّ تُكْرِمُونَ الْيَتِيمَ (١٧) وَلا تَحَاضُّونَ عَلَىٰ طَعَامِ الْمِسْكِينِ (١٨) وَتَأْكُلُونَ التُّرَاثَ أَكْلاً لَّمًّا (١٩) وَتُحِبُّونَ الْمَالَ حُبًّا جَمًّا (٢٠) كَلاَّ إِذَا دُكَّتِ الأَرْضُ دَكًّا دَكًّا (٢١) ﴾ [الفجر]

وكما قال تعالى : ﴿ أَوَ لَمْ يَرَ الإِنسَانُ أَنَّا خَلَقْنَاهُ مِن نُّطْفَةٍ فَإِذَا هُوَ خَصِيمٌ مُّبِينٌ (٧٧) ﴾ [يس]

والآيات فى ذلك كثيرة.

وكان مشركو مكة يطلبون من النبى ﷺ أن يجعل لهم يوما ولهؤلاء الفقراء يوما. لكن الله تعالى أمر نبيه ﷺ أن يصبر نسه مع هؤلاء الفقراء المخلصين المتقين.

قال تعالى : ﴿ وَاصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُ وَلا تَعْدُ عَيْنَاكَ عَنْهُمْ تُرِيدُ زِينَةَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَلا تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُ عَن ذِكْرِنَا وَاتَّبَعَ هَوَاهُ وَكَانَ أَمْرُهُ فُرُطًا (٢٨) ﴾ [الكهف]

كان الكافر قد وهبه الله جنتين من أعناب، محفوفتين بسور من النخيل تتوسطهما الزروع والثمار، ويتفجر من خلالهما نهر يجرى بينهما فى منظر خلاب (جذاب) وأجمل شئ فى الدنيا الماء والخضرة، فضلا عن أن هاتين الجنتين (البساتين) تطرح ثمارها كاملة غير منقوصة، فجمع له الرزق الوفير مع جمال المنظر وطيب الهواء ، مع وفرة المال وكثرة الأولاد

والأتباع فجمع له بين الضروريات والكماليات وحيزت له الدنيا بحذافيرها. فلم يكن من الشاكرين.

وفى يوم كان الرجل المؤمن عند قريبه صاحب الحديقتين ودار بينهما حوار فقال له أنا أكثر منك مالا وأعز نفرا، ثم دخل جنته يهتز خيلاء وفخرا. وقال ما أعتقد أن هذه الجنة تهلك أبدا وما أظن أن القيامة تقوم كما تدعى، ولو فرض أنها قامت ورجعت إلى ربى كما تزعم لأجدن خيرا منها فى آخرة أمرى ولدى عودتى لربى. قال قريبه المؤمن أكفرت بالذى خلقك من تراب ثم من نطفة ثم سواك رجلا؟

وكل منا يعتبر مخلوقا من تراب باعتبار أن أبانا آدم عليه السلام خلق من تراب وحملنا فى ظهره فى هيئة ذرات أو ذرارى صغيرة فيها خصائصه وهيئته وتكوينه فكل إنسان منا يحمل خصائص التراب والطين، وفى أجسادنا وتكويننا المعادن نفسها التى توجد فى التراب ، كما أن ذرية آدم خلقوا من نطفة وهى سائل يحمل ميكروبات منوية تزيد عن خمسة ملايين حيوان منوى فى السنتيمتر المكعب. ويصنع هذا السائل فى خصية الرجل ثم يمتزج بماء المرأة الذى ينزل من عظام الرقبة كما قال تعالى : ﴿ فَلْيَنظُرِ الْإِنسَانُ مِمَّ خُلِقَ (٥) خُلِقَ مِن مَّاءٍ دَافِقٍ (٦) يَخْرُجُ مِنْ بَيْنِ الصُّلْبِ وَالتَّرَائِبِ (٧) إِنَّهُ عَلَىٰ رَجْعِهِ لَقَادِرٌ (٨) ﴾ [الطارق]

والإنسان الذى يتكبر لو تفكر فى بداية أمره ونهايته لما تعالى وتكبر. فهو خلق من ماء مهين ، وخرج من مجرى البول مرتين وأصل تكوينه من ميكروب يسمى الحيوان المنوى، خرج هذا الإنسان من مجرى البول لأبيه

وأمه ثم كان ضعيفا لا حول له ولا قوة لا يسمع ولا يبصر ولا يعقل ولا يعلم شيئا كما قال تعالى : ﴿ والله أخرجكم من بطون أمهاتكم لا تعلمون شيئا وجعل لكم السمع والأبصار والأفئدة ﴾.

ثم تحولت هذه النطفة المخصبة إلى علقة (قطعة من الدم) ثم مضغة كقطعة اللحم ثم عظاما ثم كسيت العظام لحما ثم صار خلقا آخر، وتكون فى ظلمات ثلاث ظلمة البطن وظلمة الرحم وظلمة المشيمة.

كما قال تعالى : ﴿ يخلقكم خلقا من بعد خلق فى ظلمات ثلاث ﴾.

وكما قال تعالى : ﴿ وَلَقَدْ خَلَقْنَا الإِنسَانَ مِن سُلالَةٍ مِّن طِينٍ (١٢) ثُمَّ جَعَلْنَاهُ نُطْفَةً فِي قَرَارٍ مَّكِينٍ (١٣) ثُمَّ خَلَقْنَا النُّطْفَةَ عَلَقَةً فَخَلَقْنَا الْعَلَقَةَ مُضْغَةً فَخَلَقْنَا الْمُضْغَةَ عِظَامًا فَكَسَوْنَا الْعِظَامَ لَحْمًا ثُمَّ أَنشَأْنَاهُ خَلْقًا آخَرَ فَتَبَارَكَ اللَّهُ أَحْسَنُ الْخَالِقِينَ (١٤) ثُمَّ إِنَّكُم بَعْدَ ذَلِكَ لَمَيِّتُونَ (١٥) ثُمَّ إِنَّكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ تُبْعَثُونَ (١٦) ﴾ [المؤمنون]

ثم قال : لكنا هو الله ربى ولا أشرك بربى أحدا أى ولكن أنا أشهد أن الله ربى لا أعبد غيره وأتخذ إلها سواه.

ولولا إذا دخلت جنتك قلت ما شاء الله. أى كان أولى بك عندما تدخل جنتك أن تقول ما شاء الله أى هذا ما أراده الله فهو من نعمته وفضله لا قوة إلا بالله هو وحده صاحب القوة وهو الذى يمنحها من يشاء ويمنعها عمن يشاء.

إن ترى أنا أقل منك مالا وولدا. فعسى ربى أن يوتين خيرا من جنتك

أى ربما أعطانى الله خيرا من حديقتك التى تغتر بهما فكم من غنى افتقر بعد غنى وكم من فقير اغتنى بعد فقر وليس الغنى لك بحق مكتسب ولكنه ظل زائل وعارية (وديعة) مسترجعة.

وكلمة عسى تفيد الترجى. كما أرجو ربي أن يرسل على جنتك حسبانا (صاعقة) تنزل بحساب أي تخص جنتك فتحرفهما فتصبح طينا غارقا فى الماء لا زرع فيه ولا شجر، أو يغور ماؤها أى يغوص في الأرض فلا تستطيع استخراجه لرى الزروع والثمار.

أبنائى الأعزاء :

يجوز أن يحسد المؤمن الكافر بمعنى أن يتمنى زوال نعمته عنه إذا كانت هذه النعمة سببا لكفره وجحوده وكبره وظلمه مع اقترانها بمنع حقوق الفقراء ، مع عدم الاعتراض على الله سبحانه وتعالى أما الحسد المحرم فهو تمنى زوال النعمة عن المؤمن والاعتراض على الله تعالى فى قسمه وعطائه.

ثم ترك المؤمن قريبة الكافر واعتزله، فاستجاب الله دعوته وأرسل صاعقة من السماء أحرقت زرعه وثماره وأشجاره وغاص ماء النهر فى الأرض بحيث لا يستطيع استخراجه أو الانتفاع به.

وقوله تعالى وأحيط بثمره أى أهلك ودمر وحرق. يقال أحاط فلان بفلان أى قاتلة وهزمه.

فأصبح الكافر يقلب كفيه حسرة وندما وحزنا وألما على ما أنفق فى

جنته من أموال وهى خاوية على عروشها أى أن أشجارها أصبحت خالية من الثمار والأعناب ، وصارت جزوعا محترقة.

ومعلوم أن المزارع ينفق أموالا طائلة على البذور والشتلات وشق الترع والمصارف وشراء الآلات وأجور العمال الذين يزرعون ويحصدون وغير ذلك من النفقات ، وبذلك فقد ما أنفقه وما طرحه البستان من زروع وثمار وأعناب ونخيل.

ويقول يا ليتنى لم أشرك بربى أحدا. وليت تستعمل للتمنى أى ندم على إشراكه بالله وجحود نعمته. الذى أدى إلى تحويل الجنة المثمرة إلى خراب وسواد لا يسر الناظرين.

ولم تكن له فئة ينصرونه من دون الله ، وما كان منتصرا .

أى لم ينفعه أولاده ولا أتباعه ولم يمنعوا عنه نقمة الله وعقابه فوقف يتعجب وهو ملوم محسور ، وتذكر نصيحه ابن عمه المؤمن وعرف أنه أخلص له النصيحة فلم يستجب له فدعا عليه وأجيبت دعوته فلم ينصر الكافر نفسه ولم يمنع عنها ما نزل بها من الأهوال ولم ينصره غيره ممن كان يعتز به ويركن إليه.

هنالك الولاية لله الحق هو خير ثوابا وخير عقبا .

أى أن الولاية (النصرة) من الله الحق والحق هو الشئ الثابت الذى لا يتغير ولا يتبدل. والله خير ثوابا وخير عاقبة يثيب من أطاعه وآمن به ويجعل أخرته الحسنى (الجنة) ويجعل أمره يسرا .

أصحاب الجنة

قال تعالى : ﴿إِنَّا بَلَوْنَاهُمْ كَمَا بَلَوْنَا أَصْحَابَ الْجَنَّةِ إِذْ أَقْسَمُوا لَيَصْرِمُنَّهَا مُصْبِحِينَ (١٧) وَلا يَسْتَثْنُونَ (١٨) فَطَافَ عَلَيْهَا طَائِفٌ مِّن رَّبِّكَ وَهُمْ نَائِمُونَ (١٩) فَأَصْبَحَتْ كَالصَّرِيمِ (٢٠) فَتَنَادَوْا مُصْبِحِينَ (٢١) أَنِ اغْدُوا عَلَىٰ حَرْثِكُمْ إِن كُنتُمْ صَارِمِينَ (٢٢) فَانطَلَقُوا وَهُمْ يَتَخَافَتُونَ (٢٣) أَن لاَّ يَدْخُلَنَّهَا الْيَوْمَ عَلَيْكُم مِّسْكِينٌ (٢٤) وَغَدَوْا عَلَىٰ حَرْدٍ قَادِرِينَ (٢٥) فَلَمَّا رَأَوْهَا قَالُوا إِنَّا لَضَالُّونَ (٢٦) بَلْ نَحْنُ مَحْرُومُونَ (٢٧) قَالَ أَوْسَطُهُمْ أَلَمْ أَقُل لَّكُمْ لَوْلا تُسَبِّحُونَ (٢٨) قَالُوا سُبْحَانَ رَبِّنَا إِنَّا كُنَّا ظَالِمِينَ (٢٩) فَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ يَتَلاوَمُونَ (٣٠) قَالُوا يَا وَيْلَنَا إِنَّا كُنَّا طَاغِينَ (٣١) عَسَىٰ رَبُّنَا أَن يُبْدِلَنَا خَيْرًا مِّنْهَا إِنَّا إِلَىٰ رَبِّنَا رَاغِبُونَ (٣٢) كَذَلِكَ الْعَذَابُ وَلَعَذَابُ الآخِرَةِ أَكْبَرُ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ (٣٣)﴾ [القلم]

هذه القصة التى ساقها القرآن بمثابة عظة واعتبار لمشركى مكة ومن على شاكلتهم كما وقع فى قصة صاحب الجنتين . ليراجعوا أنفسهم.

قيل إن هذه القصة وقعت فى اليمن قبل عيسى عليه السلام أو بعده فى قرية يقال لها مزوان قرب صنعاء.

كان رجل صالح له جنة مثمرة ، وكان لهذا الرجل ثلاثة أولاد، وكان الرجل يؤدى حق الله تعالى فى جنته فيخرج منها زكاة الثمار والحبوب. فلما مات ورثه أبناؤه الثلاثة وكان فيهم فتى صالح، دعاهم أن يستمروا كما كان أبوهم يعطى الفقراء والمساكين، غير أنهم نهروه وهددوه وأجبروه على

أن يتعاهدمعهم على منع الفقراء والمساكين عن الجنة وأن يحصدوها في الصباح الباكر قبل أن يرى المساكين حصادها ويحضروا لأخذ نصيبهم.

وأقسموا على ذلك، وهو كاره لاتفاقهم وعزمهم. وبينما هم نائمون طاف على الجنة طائف من ربهم فأحرقها، فلما أصبحوا نادى بعضهم بعضا، فلما اجتمعوا انطلقوا إلى جنتهم ليقطعوا ثمارها، وهم يتخافتون أى يتكلموا بصوت خافت مخافة أن ينتبه الفقراء والمساكين، وتواصوا ألا يدخلها اليوم عليهم مسكين. فلما انتهوا إليها ظنوا أنهم قد ضلوا طريقها، لأنهم وجدوا أشجارها محترقة. ولكنهم لما تفكروا، أدركوا أنها جنتهم وأنهم أخطأوا وأجرموا، واعترفوا بخطئهم، وعاتبهم أخوهم الصغير على عدم قبول نصحيته، فندموا واعتذروا، وطلبوا من ربهم أن يبدلهم خيرا منها وألحوا فى الدعاء وتضرعوا نادمين إلي ربهم، فقبل الله اعتذارهم وتوبتهم، ثم تختم الآيات بتحذير البخلاء وما نعى الزكاة أن عذاب الله فى الآخرة أكبر وأشد لو كانوا يعلمون.

كما قال تعالى : ﴿والذين يكنزون الذهب والفضة ولا ينفقوها فى سبيل الله فبشرهم بعذاب أليم. يوم يحمى عليها فى نار جهنم فتكوى بها جباههم وجنوبهم وظهورهم هذا ما كنزتم لأنفسكم فذوقوا ما كنتم تكنزون﴾.

وكما جاء فى الحديث عن مانعى الزكاة أنهم يعذبون بشجاع أقرع (ثعبان أبيض رأسه من كثرة السم) . كما جاء فى حديث آخر عن مانعى الزكاة أن إبلهم ومواشيهم تنطحهم بقرونها وتطأهم بأظلافها وتعضهم

بأسنانها حتى يفرغ الله من حساب الخلائق ثم يؤمر بهم إلى الجنة أو النار.

وقوله تعالى : ﴿ ولا يستثنون ﴾ أى لا يستثنون أحدا من الحرمان والمنع. وقوله : ﴿ فطاف عليها ﴾ طاف أى بمجرد عزمهم وقسمهم على أن لايدخلنها اليوم عليهم مسكين طاف الطائف على الحديقة لأن الفاء تفيد الترتيب والتعقيب أى الفورية. فكان الجزاء من جنس العمل. وقوله ﴿ صارمين ﴾ أى قاطعين الثمر. يتخافتون أى يتهامسون.

وغدوا على حرد قادرين . الحرد: القصد والمنع ، والعزم والغضب. أى مضوا مبكرين على تحقيق قصدهم ونيتهم.

وقوله: ﴿ كالصريم ﴾ أى كالليل البهيم المظلم وهو السواد الناتج عن الاحتراق. وقوله : ﴿ ألم أقل لكم لولا تسبحون ﴾

أى : ألم أقل لكم هلا تذكرون الله فى هذه النعمة، وتشكرونه عليها، فتقومون بأداء حق عباده فيها. وذلك لأن الشكر هو استخدام النعم فيما خلقت له.

وهكذا تحول أصحاب الجنة إلى فقراء لاستهانتهم بالفقراء ومنع حقهم وعدم مواساتهم، وحرموا لذة العطاء وسعادة البذل والسخاء حتى دعوا على أنفسهم بالهلاك ثم ندموا وتابوا ودعوا ربهم أن يعوضهم خيرا منها بعد أن تلقوا درسا هائلا لا ينسى ولا يمحى من الذاكرة.

وهكذا تكون العبرة لكل من تسول له نفسه حرمان الفقراء والبخل

بمال الله على عباد الله ومنع حقوقهم وجحد نعم الله وآلائه، واحتقار الفقراء ونسيان آلامهم.

فالمال ظل زائل ووديعة مسترجعة. قال تعالى : يبسط الرزق لمن يشاء ويقدر أى (يضيق).

ورغم أن كثيرا من العرب قبل الإسلام كانوا يتصفون بالكرم كما كان شأن حاتم الطائى وعبد الله بن جُدعان وعبد المطلب جد النبى ﷺ وغيرهم. إلا أن كثيرا منهم أيضا كان يتصف بالبخل والشح واحتقار الفقراء فلا يكرمون اليتيم ولا يحاضون على طعام المسكين فنزلت قصة أصحاب الجنة وصاحب الجنتين ليعتبروا بحالهم ويدركوا أنه ليس ببعيد ولا ممتنع على قدرة الله تعالى أن يفعل بهم مثل ما فعل بغيرهم. وقد حدث ذلك فعلا لقريش عندما دعى عليهم الرسول ﷺ وقد اشتد أذاهم له ﷺ فقال : "اللهم عليك بقريش اللهم أشدد عليهم واجعلها عليهم سنين كسنى يوسف" فقحطوا ومنع عنهم المطر حتى أكلوا الجيف والكلاب. وأتوا رسول الله ﷺ ليدعوا لهم أن يرفع الله عنهم القحط والبلاء ففعل ﷺ.

قصة أصحاب الأخدود

قال تعالى :

﴿ وَالسَّمَاءِ ذَاتِ الْبُرُوجِ (١) وَالْيَوْمِ الْمَوْعُودِ (٢) وَشَاهِدٍ وَمَشْهُودٍ (٣) قُتِلَ أَصْحَابُ الأُخْدُودِ (٤) النَّارِ ذَاتِ الْوَقُودِ (٥) إِذْ هُمْ عَلَيْهَا قُعُودٌ (٦) وَهُمْ عَلَىٰ مَا يَفْعَلُونَ بِالْمُؤْمِنِينَ شُهُودٌ (٧) وَمَا نَقَمُوا مِنْهُمْ إِلاَّ أَن يُؤْمِنُوا بِاللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ (٨) الَّذِي لَهُ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَاللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ (٩) إِنَّ الَّذِينَ فَتَنُوا الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ ثُمَّ لَمْ يَتُوبُوا فَلَهُمْ عَذَابُ جَهَنَّمَ وَلَهُمْ عَذَابُ الْحَرِيقِ (١٠) إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَهُمْ جَنَّاتٌ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الأَنْهَارُ ذَلِكَ الْفَوْزُ الْكَبِيرُ (١١) ﴾

[سورة البروج]

هذه الآيات الكريمة تحكى قصة أصحاب الآخدود . والأخدود هو الشق أو الحفرة العميقة فى الأرض. وهذه الآيات تندد باجرام بعض الملوك الذى قست قلوبهم فكانت كالحجارة أو أشد قسوة، تندد بموقف غاية فى الإجرام والشناعة والقسوة والغلظة التى فاقت غلظة الجوارح والسباع.

تسجل هذه الآيات موقف أصحاب الأخدود من المؤمنين بالله واليوم الآخر، وصبرهم على الفتنة والتعذيب الذى وصل إلى منتهى الخزى والسفالة حيث أحرقوهم بالنار دون ذنب جنوه أو جرم اقترفوه. تفنن الكافرون فى تعذيب المؤمنين ليردوهم عن دينهم فأبوا أن يتركوا دينهم فحفرا لهم الأخاديد وأشعلوا فيها نارا حامية، وألقوهم مكبلين (مقيدين)

واحدا واحدا أمام أبنائهم وآبائهم، وجلسوا حول النار ينظرون إلي المؤمنين وهم يلقون فى النار يشمتون فيهم ويتمتعون بعذابهم وقتلهم وهم مصرين على إيمانهم وتوحيدهم.

صبروا على عذاب النار، وضحوا بأرواحهم فى سبيل دينهم وعقيدتهم، واستخفوا بكل وعيد وتهديد، ولم تنخلع قلوبهم عندما أحضروا إلى النار ورأوها رأى عين وشاهدوا ضِرامها ولهيبها وصوتها المزعج الذى يبث الرعب فى أقوى القلوب ، لأنهم كانوا يعلمون أن نار الله أشد وأنكى للكافرين، وأنهم شهداء أحياء عند ربهم يرزقون، فأثروا الآخرة علي الدنيا.

كان مشهدا مروعا أن يعاينوا النار ويعلموا أنهم سيلقون فيها وأمام أهليهم وأولادهم. وفى مقابلة كفار غلاظ القلوب شامتين فيهم لا تأخذهم بهم رحمة ولا شفقة، وهم يسمعون حثيثها ويعانون من حرها. فلشد ما كان ثباتهم وصبرهم واحتسابهم وشجاعتهم ويقينهم.

وأنزل الله السكينة فى قلوب المؤمنين، ليزدادوا إيمانا مع إيمانهم، وهون عليهم سكرات الموت، حتى قيل أن أرواح المؤمنين كانت تخرج من أجسادهم قبل إلقائهم فى النار.

وقد جاء فى بعض الأحاديث أن الشهيد يحس بضرب السيوف وطعن الرماح كما يحس من تشاكه شوكة.

يقول رب العزة تبارك وتعالى : ﴿ **ولا تحسبن الذين قتلوا فى سبيل الله أمواتا بل أحياء عند ربهم يرزقون** ﴾ .

وقال تعالى : ﴿ ولا تقولوا لمن يقتل فى سبيل الله أموات بل أحياء ولكن لا تشعرون ﴾.

وفى بداية سورة البروج يقسم الله تعالى بالسماء ذات البروج والبروج هى منازل الكواكب أم مداراتها، واليوم الموعود هو يوم القيامة وشاهد ومشهود، أى والمرئى والرائى أو يوم الجمعة ويوم عرفة. فأقسم الله تعالي بالمخلوقات العلوية والسفلية، والمشاهدة والفانية، والمنظورة وغير المنظورة، فاستشهد الوجود كله ليشهد هذا الجرم الشنيع وليعلم حكمه على المجرمين.

قتل أصحاب الأخدود. النار ذات الوقود أى النار الموقدة التى جمع لها كم هائل من الوقود من الأخشاب وغيرها. إذ هم عليها قعود، أى واذكر يا محمد منظرهم وهم قعود على النار والكفار يشاهدون عذاب المؤمنين وقتلهم. وهم على ما يفعلون بالمؤمنين شهود ناظرين حاضرين. وما نقموا منهم إلا أن يؤمنوا بالله العزيز الحميد.

وما كرهوا منهم إلا أنهم آمنوا بالله رب العالمين المتصف بالعزة أى المستغنى عن خلقه الحميد المستحق للثناء والحمد والمجد.

الذى له ملك السموات والأرض. مالكها وخالقها ومدبر أمرها لا شريك له فى ملكها وتدبيرها.

والله على كل شئ شهيد. يرى كل شئ ويعلمه لا تخفى عليه خافية ويسجل كل شئ فى كتاب.

﴿إن الذين فتنوا المؤمنين والمؤمنات ثم لم يتوبوا فلهم عذاب جنهم ولهم عذاب الحريق﴾. أى أن الذين حرقوا المؤمنين وأرادوا حملهم على الكفر ونبذ الإيمان ثم لم يتوبوا فلهم عذاب جهنم وهى نار الله الموقدة ولهم عذاب الحريق جزاء كفرهم ودعوتهم إلى الكفر وإيذاء المؤمنين والجزاء من جنس العمل.

بنى العزيز - بنيتى العزيزة:

تأمل إلى رحمة الله تعالى يتيح فرص التوبة حتى لأكابر المجرمين الذين فتنوا المؤمنين والمؤمنات ولا يتوعد بالعذاب إلا من لم يتب.

ثم تذكر الآيات جزاء الذين آمنوا بالله وعملوا الصالحات بأن لهم جنات تجرى من تحتها الأنهار وأن ذلك هو الفوز (النجاح) الكبير،

وقلنا سابقا أن من أعظم النعم هى الخضرة والماء وهذا من جزاء المؤمنين يوم القيامة وأنظر إلي قوله تعالى حيث ذكر الفعل آمنوا أنه قال وعملوا الصالحات وهذا يثبت ما قاله علماء أهل السنة من أن الإيمان قول وعمل ونية وقولهم : الإيمان قول باللسان وعمل بالأركان. وقول الرسول ﷺ الإيمان ما وقر فى القلب وصدقه العمل وقول البخارى وغيره إن الإيمان يزيد وينقص يزيد بالطاعة وينقص بالمعصية.

كما قال تعالى : ﴿ ليزدادوا إيمانا مع إيمانهم﴾

كما أن القرآن مثانى كما قال تعالى : ﴿ ولقد أنزلنا عليك سبعا من المثانى والقرآن العظيم﴾ أى يذكر النار ويذكر الجنة يذكر العقاب ويذكر

معه الثواب بأسلوب الترغيب والترهيب وهذا هو الأسلوب الأمثل فى التربية والقيادة الإحسان إلى المحسن والعقاب للمسئ.

من هم أصحاب الأخدود:

أصحاب الأخدود كانوا معاصرين لملك جبار من ملوك اليمن وكان على دين اليهودية، وقد دخلت اليهودية اليمن بعد دخول بلقيس ملكة سبأ فى دين سليمان عليه السلام. ثم ارتد أهل اليمن إلى الشرك بعد أن تطاول عليهم الزمن ثم عادوا إلى اليهودية لما قابل أحد ملوك اليمن حبرين يهوديين ومنعاه من الاقدام على هدم الكعبة واقنعاه أن يعظمها ويكسوها وحذراه إن من يريد الكعبة بسوء قصمه الله وأهلكه ونهياه عن أتباع نصيحة بعض الأعراب الذين حرضاه على هدم الكعبة ليهلكه الله تعالى فعظم . تبع الحبرين ودخل فى دينهما .

ثم دخلت النصرانية إلى اليمن على يد عالم صالح من علماء النصارى يسمى فيمون وهبه الله تعالى القدرة على علاج المرضى ولما جاء عيسى عليه السلام بالنصرانية كان لزاما على اليهود أن يدخلوا فى دينه وإلا أصبحوا كافرين، وأيضا عندما بعث محمد ﷺ كان لزاما على كل الناس وعلى سائر الجن أن يدخلوا فى دين الرسول ﷺ وإلا كانوا كافرين مخلدين فى النار.

وكان ملك اليمن المعاصر لهذه اقصة والذى أحرق المؤمنين يسمى ذو نواس كان على دين اليهودية.

كان ذو نواس يتخذ ساحرا يستشيره فى بعض أموره، ويجعله من جلسائه، ولما كبر الساحر ووهن جسمه ورق عظمه وشاب شعره قال للملك: أيها الملك الكريم.. إننى كما ترى كبرت ووهن العظم منى، واشتعل رأسى شيبا، وأرى أن تبعث لى غلاما أعلمه السحر.

فبعث الملك إليه غلاما كى يعلمه السحر.

كان الغلام ذكيا نشيطا يحب المعرفة والعلم، وكان يأتى للساحر من أقصى المدينة ماشيا. وكان فى طريقه إلي الساحر يمر بصومعة صغيرة كانت تظللها بعض الأشجار والزروع.

وكان الغلام يرى فيها شيخا كبيرا يسقى زرعا، أو يطلق شاته، أو يسير بين الأشجار. وكان أحيانا يراه فى عبادته وصلاته.

كان الغلام يميل إلى هذا الراهب وقد انجذب إليه قلبه، فرغب فى الحديث إليه، والجلوس بين يديه والتلقى عنه، لذا كان الغلام يبطئ على الساحر. وهو يجلس بجوار الصومعة يتأمل الراهب الشيخ، وكانت ملامح الراهب تنئ عن رقة وسماحة.

وذات يوم ، بينما كان الغلام سائرا فى طريقه إلى الساحر، نظر إلي الصومعة فرأى الراهب جالسا فى سكينة وخشوع مسندا رأسه إلى الجدار، فقال فى نفسه : إننى أشتاق إلي سماع هذا الشيخ الصامت.

وقف الغلام على باب الحديقة ونادى علي الشيخ، بعد أن ألقى عليه التحية: هل أجد عندك ماء؟

التفت إليه الشيخ مرحبا به ودعاه إلي الدخول وقدم له الماء وأحس الغلام براحة وسعادة وهو داخل إلي الراهب الذى لقيه بوجه باسم.

قال الغلام : هل تأذن لى فى الجلوس معك قليلا؟

رد الشيخ : نعم .. أهلا بك.

وجلس الغلام تحت شجرة مثمرة يستظل بها من حر الشمس بينما قام الشيخ إلى شجرة عنب مثمرة وأتى منها بقطف (عنقود) . ثم غسله، وقدمه للغلام.

قال الشيخ : هل تسكن قريبا من هذا الطريق؟

قال الغلام : كلا .. إننى أسكن فى أقصى المدينة، لكننى أمر كل صباح من هذا الطريق.

وأقبلت عنزة إلى الشيخ فداعبها ثم قال للغلام : تكلم يا فتى إنى أصغى إليك.

الغلام : إنى أذهب كل يوم إلى شيخ كبير من جلساء الملك يعلمنى مما يعلم، ومنزله يقع فى آخر هذا الطريق.

الراهب : وهل تعلمت منه شيئا؟

الغلام : حدثنى عن الأبراج والنجوم، ووعدنى أن يعلمنى الكثير من أسرارها، وعن علاقتها بحياة الناس.

الشيخ : مر على فى كل يوم أعملك عنها الكثير مما علمنى الله؟

الغلام : إن الساحر لايذكر الله.

الشيخ : يابنى إن الله ربي وربك ورب كل شئ وخالق الكون.

الغلام بدهشة : وأين الله؟

الشيخ : الله فى السماء يابنى يرانا ولا نراه، وهو خالقنا ورازقنا، ومصرف أمورنا وهادينا فى البر والبحر.

الغلام : مدهوشا من هذا الكلام الذى لم يكن يسمعه من الساحر الذى كان يتوجه إلى الكواكب والنجوم وملوك الجان : يا أبت هل يرانا الله الآن ويسمعنا؟

الشيخ : نعم يا بنى، إنه تعالى الذى أحيانا وهو الذى يميتنا، وسوف يحيينا من موتنا مرة أخرى ليحاسبنا على أعمالنا، فيكافئ المحسنين بالإحسان ويعذب الظالمين والأشرار.

الغلام : زدنى علما أيها الشيخ الكريم.. إننى أريد معرفة الله.

الشيخ : يا بنى قم الآن إلى أستاذك حتى لا تتأخر عليه وإن شاء الله نكمل حديثنا فى مرة قادمة.

وانصرف الغلام وهو يفكر فى كلام الراهب، وعندما دخل على الساحر رآه غاضبا ونهره وشتمه. ولم يرد الغلام وقد تعلم من الشيخ الراهب الكثير عن عظمة الكون، وروعة النجوم. وأن الذى خلقها ويسيرها بحكمة ودقة هو الله عز وجل.

وتعلم من الشيخ شيئا من الطب والعلاج بالأعشاب، وأدرك أن الذي يمرض ويشفى هو الله سبحانه وتعالى. وكان الغلام قد أصبح يداوى المرضى.

وكان الغلام إذا تأخر على الساحر ضربه الساحر، وإذا تأخر عن أهله ضربوه.

قال الراهب للغلام وهو جالس عنده ذات يوم وقد شكى له ما يلقى من الساحر ومن أهله: إذا خشيت الساحر فقل حبسنى أهلى وإذا خشيت أهلك فقل حبسنى الساحر. وهذا من الضرورات التى تبيح المحظورات ، وذلك حتى يستطيع أن يتعلم أمور دينه، ويعرف باطل الساحر. ظل الغلام على هذه الحال مدة، يروح إلي الساحر، ويغدوا إلي الراهب. ويسمع من هذا وهذا، حتى كان يوم، فبينما هو فى طريقه إلى الساحر إذ به يرى الناس فى خوف وفزع ، ونظر فإذا دابة عظيمة وسط الطريق تمنع الناس من المرور.

فكر الغلام وقال : اليوم أعلم الساحر أفضل أم الراهب؟

فأخذ حجرا وقال : اللهم إن كان أمر الراهب أحب إليك من أمر الساحر فاقتل هذه الدابة حتى يمضى الناس.. ثم رماها فقتلها، ومضى الناس. فأتى الراهب وأخبره بما حدث.

فقال الشيخ : أى بنى .. إنك اليوم أفضل منى ، قد بلغ من أمرك ما أرى ببركة إخلاصك لله، وحبك للحقيقة وإنك ستبتلى فلا تدل على.

وذاع فى الناس خبر الغلام، وأنه يعالج الناس من الأمراض ويبرئ الأعمى والأبرص.

وسمع أحد جلساء الملك عن الغلام ، وكان قد عمى فأتاه بهدايا كثيرة وقال له : أيها الفتى هذه الهدايا لك. ومثلها إن أنت شفيتنى من العمى.

الغلام : إننى لا أشفي أحدا، إن الذى يشفى الناس هو الله تعالى ، فإن أنت آمنت بالله، دعوت الله فشفاك.

فآمن الرجل بالله تعالى ، فدعا له الغلام، فشفاه الله وخرج يمشى مبصرا.

ثم أتى الرجل الملك وجلس إليه كما كان يجلس فسأله الملك : من رد عليك بصرك؟

قال الرجل : ربى.

انتفض الملك وصاح : من ؟ . أو لك رب غيرى؟

قال الرجل : نعم .. ربي وربك الله.

فأخذه الملك ودفعه إلي الجلاد ، ولازال يعذبه ويضربه حتى دله على الغلام.

فجئ بالغلام المؤمن إلي قصر الملك، وعندما وقف أمامه سأله الملك : أى بنى .. قد بلغ من سحرك ما تبرئ الأعمى والأبرص وتفعل وتفعل.

فقال الغلام : إننى لا أشفى أحدا، إنما يشفى الله تعالى.

أشار الملك إلى أعوانه، فأخذوه وعذبوه حتى دل علي الراهب. فجئ بالراهب، وأمره الملك أن يرجع عن دينه، فأبى الراهب وأخذ يتمتم فى سره: لا إله إلا الله. أحد .. أحد

فدعا الملك بالمنشار، فوضع في مفرق رأسه بعد أن صلبوه،

وسأله : هل ترجع عن دينك؟

قال الراهب وهو يرفع بصره إلى السماء : لا إله إلا الله.. أحد .. أحد، عليها أحيا ، وعليها أموت وعليها أبعث إن شاء الله.

أشار الملك إليهم إشارة، فهوى المنشار على رأسه فشقه حتى وقع شقان (نصفان)، وتناثر لحمه وعظمه، وسالت دماؤه.

قال الملك : ائتونى بالغلام . فجئ به.

قال له الملك : يا بنى ارجع عن دينك، إنك صغير. ألا تعلم ما فعل بصاحبك العجوز.. ذلك الراهب الذى أغواك ؟!

قال الغلام : كلا .. لن أعود إلى ملتكم بعد أن نجانى الله منها وإن الله تعالى – هو ربى وربكم، وخالقى وخالقكم.

صاح الملك: اذهبوا به إلي الصحراء، واصعدوا به الجبل، فإذا بلغتم ذروته، اتركوه لحظة يفكر فى الأمر، فإن رجع عن دينه فاتركوه، وإلا فاطرحوه من فوق الجبل.

فذهب الحراس بالغلام ، وصعدوا به الجبل، وهناك رفع الغلام عينيه إلى السماء وقال في ضراعة: اللهم أكفنيهم بما شئت.

فارتجف الجبل كأن زلزالا وقع ، وسقطوا جميعا إلا الغلام وعاد إلى الملك ماشيا.

فلما رآه الملك دهش وقال : ما فعل أصحابك؟

قال : كفانيهم الله تعالى.

ردد الملك كلام الغلام فى ذهول : كفانيهم الله تعالى ؟!

وأشار الملك إلي بعض رجاله غاضبا: اذهبوا به فاحملوه فى قارب وتوسطوا به البحر، فإن رجع إلى دينه فعودا به ، وإلا فاقذفوه فى اليم ليكون طعاما للحيتان.

فذهبوا به إلى البحر، وانطلق القارب بعيدا عن الشاطئ حيث الموج الهائج، والقاع العميق، وهناك رفع الغلام المؤمن عينيه إلى السماء وقال : اللهم أكفنيهم بما شئت.. أى اكفنى شرهم بالكيفية التى تشاؤها.

فجاءت موجة شديدة أكفأت القارب فوقعوا فى اليم، وغرقوا، وتشبث الغلام بلوح خشبي حتى قذفه الموج إلئ الشاطئ.

وعاد إلى الملك ماشيا، فلما رآه الملك، لم يصدق عينيه عقدت الدهشة لسانه، ولم يدر مايقول.

أشار الغلام بأصبعه وقال بثبات وثقة : إنك لست بقاتلى أيها الملك حتى تفعل ما أشير به.

قال الملك ساخرا : ما هو؟

قال : تجمع الناس فى مكان واحد وتصلبنى على جذع شجرة، ثم خد سهما من كنانتى (جعبة السهام)، ثم ضع السهم فى كبد القوس، ثم قل : بسم الله رب الغلام، ثم ارمنى ، فإذا فعلت ذلك.. فتقتلنى خلصت منى.

نظر الملك لمن حوله وقال : ألا تستمعون ؟

اخرجوا إلى الناس واجمعوهم فى ساحة العرض ليشهدوا مقتل هذا الغلام الآبق.

واجتمع الناس بأمر الملك فى ساحة كبيرة، فى زحام كأنه يوم الحشر، رجال ونساء وأطفال، الكل فى انتظار لحظة إعدام الغلام الصغير، الذى طالما تحدى الملك.

والغلام المؤمن يجلس ساكنا أمام جذع شجرة متأملا هذا الحشد الكبير من الناس، وضجيج وصخب كأنه سوق كبير.

وجاء موكب الملك فصفق الناس ، وبسرعة صلب الغلام على جذع شجرة حتى يراه الملأ.

ووضع الملك السهم فى القوس، ورفعه صوب الغلام، وصاح الحراس: سكوتا.. سكوتا أيها الناس.

وبصوت عال صاح الملك : بسم الله رب الغلام، ثم رماه فوقع السهم فى صدغه، وهو يردد : لا إله إلا الله . لا إله إلا الله. نظر الناس بعضهم إلى بعض وصاحوا: آمنا برب الغلام. آمنا برب الغلام.

وركب الملك جواده وعاد إلى قصره مسرورا، وقد ظن أنه استراح من هم هذا الغلام العنيد.

ولم تمر ساعة حتى دخل رجال الملك عليه فى هلع وجزع فصاح فيهم: ما شأنكم؟!

قالوا: أرأيت ماكنت تحذر، قدر الله نزل بك حذرك.. قد آمن الناس برب الغلام.

انتفض الملك وهو يصيح غاضبا: ماذا؟ آمن الناس برب الغلام؟!.. كيف .. إنه قتل أمام أعينهم حتى يزدجروا.. ياله من غلام ماكر والله لأجعلهم عبرة لمن يعتبر. اسمعوا جيدا.

قال الرجال : سمعا وطاعة أيها الملك.

الملك : احفروا أخدودا عميقا فى الأرض ، وأججوا النيران فيه، أريدها نارا حامية وهائلة، ومن لم يرجع عن دينه فالقوه فيها، ولا تستثنوا أحدا. وحفر الرجال الأخدود وأضرمت النيران، واقتيد الناس بالقوة، وحشرهم الحراس أمام الأخدود، والنار تلفح الوجوه ، ويسمع لها تغيظا وزفيرا. كان الأطفال يصرخون، والناس تلقى فى النار واحدا تلو الواحد.

وجاء الدور على امرأة مؤمنة تحمل صغيرها، وتضمه إلى صدرها بأعين دامعة ونفس ملتاعة(حزينة) دفعها الحراس إلي النيران وهى تمشى بخطى مترددة ، وتنظر إلى الغلام الرضيع بلوعة وحسرة. وعلى حافة الأخدود تسمرت وتقاعست أن تقع فى النار.

فقال لها الغلام الرضيع: يا أماه.. اصبرى فإنك على الحق.

وهنا جف دمعها من الدهشة، وضمت صغيرها إلى صدرها وهى تردد: آمنت بالله الذى لا إله إلا هو. وألقوها فى السعير.

وهذه القصة تروى بطولة طائفة من المؤمنين واجهوا أعتى الجبابرة بقلوب ثابتة.

وعن مقتل(١) : كان الذين اتخذوا الأخاديد فى ثلاث من البلاد بنجران وبالشام وبفارس. أما الذى بالشام : فانطانيوس الرومى ، وأما الذى بفارس فهو بختنصر. وأما الذى بنجران فيوسف ذو نواس ؟

وذكر ابن اسحاق وغيره من المؤرخين أن اسم الراهب فيميون، واسم الغلام عبد الله بن التامر.

وأصحاب الأخدود المذكورون فى سورة البروج كانوا بنجران باليمن. ولعل قصة أصحاب الأخدود قد تكررت، وقد فعل نفس الشئ مع رسول الله ونبيه إبراهيم عليه السلام قبل أصحاب الأخدود المشار إليهم فى هذه القصة.

والقصة التى رويناها فى شكل حوار طويل ورد ذكرها فى حديث للإمام مسلم فى قصة مختصرة أخرجها مسلم من حديث صهيب الرومى عن الرسول ﷺ.

---

(١) من كبار علماء التفسير .

قصة أصحاب الفيل

قال تعالى :

﴿ أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِأَصْحَابِ الْفِيلِ (١) أَلَمْ يَجْعَلْ كَيْدَهُمْ فِي تَضْلِيلٍ (٢) وَأَرْسَلَ عَلَيْهِمْ طَيْرًا أَبَابِيلَ (٣) تَرْمِيهِم بِحِجَارَةٍ مِّن سِجِّيلٍ (٤) فَجَعَلَهُمْ كَعَصْفٍ مَّأْكُولٍ (٥) ﴾ [الفيل]

أبنائى الأعزاء :

نزلت هذه السورة سورة الفيل فى أبرهة الأشرم الذى حاول هدم الكعبة. وساق الأفيال مع جيشه لاتمام هذه الجريمة النكراء.

نبذة تاريخية

ويقال إن الفيل مع عظمة خلقه يخاف من القط، وقد احتال بعض أمراء الحروب فى إحدى المعارك التى وقعت بينهم وبين الهنود باحضار السنانير – القطط– إلى ساحة المعركة فنفرت –هربت– الفيلة.

وقد كان الهنود أيضا يستخدمون الأفيال فى حروبهم لكثرة الأفيال فى الهند. فهناك ما يعرف بالأفيال الأفريقية والأفيال الآسيوية.

بنى أبرهة الحبشى الذى كان يحتل اليمن قبل الإسلام بنى كنيسة بصنعاء لم مثلها فى زمانها بشئ من الأرض، وكتب إلى النجاشى إنى قد بنيت لك كنيسة لم يبن مثلها لملك كان قبلك ، ولست بمنته حتى أصرف إليها حج العرب.

وكان أبرهة يسخر أهل اليمن فى بناء الكنيسة، وكان من تأخر عن العمل حتى تطلع الشمس يقطع يده لا محالة، وجعل ينقل إليها من قصر بلقيس رخاما وأحجارا وأمتعة عظيمة وركب فيها صلبانا من ذهب وفضة، وجعل فيها منابر من عاج وأبنوس، وجعل ارتفاعها عظيما جداواتساعها باهرا. فلما هلك مات- وتفرقت الحبشة كان لايتعرض أحد لها حتى كان عصر أبو العباس السفاح الخليفة العباسى الأول فبعث إليها جماعة من أهل العزم والحزم والعلم فنقضوها حجرا حجرا ودرست - أنمحت آثارها.

رجل من العرب يحدث فى القليس :

قال ابن اسحاق راوى السيرة : فلما تحدثت العرب بكتاب أبرهة إلى النجاشى غضب رجل من النشأة من كنانة الذين ينسئون شهر الحرام إلى الحل (أى يغيرون مواعيد الأشهر الحرم) إلى الحل بمكة أيام الموسم فخرج الكنانى حتى التى القليس فأحدث فيها - أى تغوط - حيث لا يراه أحد ثم خرج فلحق بأرضه، فأخبر أبرهة بذلك، فقال : من صنع هذا؟ فقيل له: صنعه رجل من أهل هذا البيت الذى تحجه العرب بمكة لما سمع بقولك أنك تريد أن تصرف حج العرب إلى بيتك هذا فغضب فجاء فقعد فيها أى أنه ليس لذلك بأهله، فغضب أبرهة عند ذلك وحلف ليسير من فوره إلى البيت ويهدمه.

خروج أبرهة يريد الكعبة المشرفة:

ثم أمر الحبشة فتهيأت وتجهزت ثم سار وخرج معه بالفيل، وسمعت

بذلك العرب فأعظموه وفزعوا به، ورأوا جهاده حقا عليهم حين سمعوا بأنه يريد هدم الكعبة بيت الله الحرام، فخرج إليه رجل كان من اشراف أهل اليمن وملوكهم يقال له يسمى (ذو نفر). فدعا قومه ومن أجابه من سائر العرب إلى حرب أبرهة وجهاده عن بيت الله الحرام. وما يريد من هدمه وإخرابه، فأجابه من أصحابه إلى ذلك، ثم عرض له فقاتله ، فهزم ذو نفر وأصحابه، وأخذ له ذو نفر فأتى له أسيرا ، فلما أراد قتله قال له ذو نفر: يا أيها الملك لا تقتلنى فإنه عسى أن يكون بقائى معك خيرا لك من القتل، فتركه من القتل وحبسه عنده فى وثاق، وكان أبرهة رجلا حليما ثم مضى أبرهة على وجهه ذلك يريد ما خرج له ، حتى إذا كان بأرض خثعم عرض له نفيل بن حبيب الخثعمى فى قبيلتى خثعم - وهما شهران وناهس، ومن تبعه من قبائل العرب فقاتله، فهزمه أبرهة وأخذ نفيل أسيرا ، فأتى به لما هم بقتله قال له نفيل : أيها الملك لا تقتلنى فإنى دليلك بأرض العرب وهاتان يداى لك قبيلتى خثعم شهران وناهس بالسمع والطاعة، فخلى سبيله وخرج به معه يدله، حتى إذا مر بالطائف خرج إليه مسعود بن معتب ابن مالك بن كعب بن عمرو بن سعد بن عوف بن ثقيف فى رجال ثقيف فقالوا له : أيها الملك إنما نحن عبيدك ، سامعون لك مطيعون، ليس عندنا لك خلاف، وليس بيتنا هذا البيت الذى تريد- يعنون اللات إنما تريد البيت الذى بمكة ونحن نبعث معك من يدلك عليه فتجاوز عنهم.

قال ابن اسحاق : واللات بيت لهم بالطائف كانوا يعظمونه نحو تعظيم الكعبة، قال : فبعثوا معه أبا رغال يدله على الطريق إلى مكة فخرج أبرهة ومعه أبو رغال حتى أنزله بالمغمس، فلما أنزله به مات أبو رغال هناك،

فرجمت قبره العرب فهو القبر الذى يرجم الناس بالمغمس.

وقد كان من قوم ثمود ورجل يسمى أبور غال كان فى الكعبة فلما خرج من الحرم أصابته الصاعقة - التى أصابت ثمود وأبو رغال هذا هو أبو قبيلة ثقيف، وقد توافق الإسمان.

فلما نزل أبرهة بالمغمس بعث رجلا من الحبشة يقال له الأسود بن مقصود على فيل له حتى انتهى إلى مكة، فساق إليه أموال تهامة من قريش وغيرهم، وأصاب فيها مائتى بعير لعبد المطلب بن هاشم وهو يومئذ كبير قريش وسيدها- فهمت قريش وكنانه وهذيل ومن كان بذلك الحرم بقتاله، ثم عرفوا أنه لا طاقة لهم به فتركوا ذلك، وبعث أبرهة حناطة الحميدى إلى مكة وقال له : سل عن سيد أهل هذا البلد وشريفهم، ثم قل له: إن الملك يقول إنى لم أت لحربكم إنما جئت لهدم هذا البيت، فإن لم تعرضوا لنا دونه بحرب فلا حاجة إلى بدمائكم، فإن هو لم يرد حربى فائتنى به، فلما دخل حناطة مكة سأل عن سيد قريش وشريفها؟؟ فقيل له عبد المطلك بن هاشم، فجاءه فقال له ما أمره به أبرهة، فقال عبد المطلب: والله ما نريد حربه وما لنا بذلك من طاقة، هذا بيت الله الحرام وبيت خليله إبراهيم عليه السلام، فإن يمنعه منه فهو حرمه وبيته، وإن يخل بينه فوالله ما عندنا دفع عنه، فقال له حناطة : فانطلق معى إليه فإنه قد أمرنى أن آتيه بك، فانطلق معه عبد المطلب ومعه بعض بنيه حتى أتى العسكر فسأل عن ذى نفر وكان صديقا له - حتى دخل عليه وهو فى محبسه فقال له : يا ذا نفر هل عندك من غناء فيما نزل بنا؟ فقال له ذو نفر: وما غناء رجل أسير بيدى ملك ينتظر أن يقتله غدوا أو عشيا؟ ما عندى غناء فى شئ مما بك إلا

أن أنيسا سائس الفيل صديق لى، فأرسل إليه وأوصيه بك وأعظم عليه حقك، واسأله أن يستأذن لك على الملك فكلمه بما بدا لك ويشفع لك عنده بخير إن قدر على ذلك، فقال حسبى، فبعث ذو نفر إلى أنيس فقال له : إن عبد المطلب سيد قريش وصاحب عين مكة (زمزم) يطعم الناس بالسهل والوحوش فى رؤوس الجبال، وقد أصاب له الملك مائتى بعير فاستأذن عليه وانفعه عنده بما استطعت، قال : افعل، فكلم أنيس أبرهة فقال له : أيها الملك هذا سيد قريش يستأذن عليك ، وهو صاحب عين مكة وهو الذى يطعم الناس بالسهل والوحوش في رؤوس الجبال، فأذن له عليك فيكلمك فى حاجته، فأذن له أبرهة.

عبد الملك يقابل أبرهة :

وكان عبد الملك أوسم الناس وأعظمهم وأجملهم فلما رآه أبرهة أجله (عظمه) وأكرمه عن أن يجلسه تحته، وكره أن تراه الحبشة يجلسه معه على سرير ملكه ، فنزل أبرهة عن سريره فجلس على بساطه وأجلسه معه إلى جانبه، ثم قال لترجمانه : قل له ما حاجتك ؟ فقال له ذلك الترجمان، فقال : حاجتى أن يرد على الملك مائتى بعير أصابها لى، فلما قال له ذلك قال أبرهة لترجمانه : قل له لقد كنت أعجبتنى حين رأيتك ثم قد زهدت فيك حين كلمتنى ، أتكلمنى فى مائتى بعير أصبتها لك وتترك بيتا هو دينك ودين آبائك قد جئت لأهدمه لا تكلمنى فيه؟ فقال له عبد المطلب: إني أنا رب الإبل وإن للبيت ربا سيمنعه ، فقال : ما كان ليمتنع منى، قال : أنت وذاك ، فرد على عبد المطلب إبله.

عبد المطلب يأمر قريشا بالخروج من مكة :

فلما انصرف عنه انصرف عبد المطلب إلى قريش فأخبرهم الخبر وأمرهم بالخروج من مكة والتحرز فى رؤوس الجبال، ثم قام عبد المطلب فأخذ بحلقة باب الكعبة وقام معه نفر من قريش يدعون الله ويستنصرونه علي أبرهة وجنده، وقال عبد المطلب وهو آخذ بحلقة باب الكعبة:

لأهم إن العبد يمنـــع   رحله فأمنع رحـــالـك

لا يغلبن صليبــــهم   ومحالهم أبدا محــالك

إن كنت تاركهم وقبـ   ـسلتنا فأمر ما بدا لك

ثم أرسل عبد المطلب حلقة باب الكعبة وانطلق هو ومن معه من قريش إلى شعف الجبال يتحرزون فيها ينتظرون ما أبرهة فاعل؟

أبرهة يتهيأ للهجوم على الكعبة :

فلما أصبح أبرهة تهيأ لدخول مكة وعبئ جيشه ، وكان اسم الفيل محمودا، فلما وجهوا الفيل إلى مكة أقبل نفيل ابن حبيب حتى قام إلي جنب الفيل ثم أخذ باذنه فقال : أبرك محمود وأرجع راشدا من حيث أتيت، فإنك فى بلد الله الحرام وأرسل أذنه، فبرك الفيل.

الفيل يرفض هدم الكعبة :

وخرج نفيل بن حبيب يشتد حتى أصعد فى الجبل، وضربوا الفيل ليقوم فأبى، فضربوا رأسه بالطبرزين (خطاف)، فنحسوه بالحديد ليقوم

فأبى، فوجهوه راجعا إلى اليمن (اتجاه اليمن) فقام يهرول، ووجهوه إلى الشام ففعل مثل ذلك، ووجهوه إلى المشرق ففعل مثل ذلك، ووجهوه إلى مكة فبرك، وأرسل الله عليهم طيرا من البحر أمثال الخطاطيف، مع كل طائر منها ثلاثة أحجار يحملها، حجر في منقاره، وحجران فى رجليه، أمثال الحمص والعدس لا تصيب منهم أحدا إلا هلك وليس كلهم أصابت، وخرجوا هاربين يبتدرون الطريق التى منها جاءوا، ويسألون عن نفيل بن حبيب ليدلهم على الطريق إلى اليمن.

هلاك أبرهة وجنوده :

فخرجوا يتساقطون بكل طريق ويهلكون بكل مهلك على كل منهل وأصيب أبرهة فى جسده، وخرجوا به معهم يسقط أنملة كلما سقطت أنملة اتبعتها منه مدة تبث قيحا ودماً حتى قدموا به صنعاء وهو مثل فرخ الطائر، فما مات حتى أنصدع (انشق) صوره عن قلبه.

تفسير سورة الفيل :

ألم تر كيف فعل ربك بأصحاب الفيل. ألم تعلم ما فعله ربك يا محمد بأصحاب الفيل أبرهة الحبشى الأشرم وجنوده. ألم يجعل كيدهم فى تضليل. وكيف جعل الله تدبيرهم فى ضلال وخسران وفشل ذريع وخيبة فلم يحققوا هدفهم فى هدم الكعبة.

وأرسل عليهم طيرا أبابيل. والأبابيل : الجماعات. ترميهم بحجارة من سجيل : ترميهم بحجارة شديدة الصلابة. فجعلهم كعصف مأكول.

وعن ابن عباس : كان لها خراطيم كخراطيم الطير، وأكف كأكف الكلاب..، وعن عكرمة: كانت رؤوسها كرؤوس السباع خرجت عليهم من البحر وكانت خضرا.

وروى أن أبى حاتم:

لما أراد الله أن يهلك أصحاب الفيل بعث عليهم طيرا انشئت من البحر أمثال الخطاطيف كل طير منها يحمل ثلاثة أحجار حجرين فى رجليه وحجرا فى منقاره، قال : فجاءت حتى وضعته على رؤوسهم، ثم صاحت فألقت ما فى رجليها ومناقيرها، فما يقع حجر على رأس رجل إلا خرج من دبره، ولا يبقى على شئ من جسده إلا خرج من الجانب الآخر، وبعث الله ريحا شديدة فضربت الحجارة فزادتها شدة فأهلكلوا جميعا.

ولكن بعض الجنود لم يمت على الفور وإنما مات بعد برهة من الزمن. وروى ابن إسحاق بسنده إلى عائشة (رضى الله عنها) قالت : لقد رأيت قائد الفيل وسائسه بمكة أعميين مقعدين يستطعمان .

واحتمل السيل جثثهم فألقاها فى البحر، وكانت قصة الفيل أول المحرم من سنة ست وثمانية وثمانمائة (٨٨٦) من تاريخ ذى القرنين.

وكان ذلك على الأرجح عام مولد النبى ﷺ والذى يوافق على أشهر الروايات عام ٥٧٠ ميلادية أى من ميلاد المسيح عليه السلام.

فلما هلك أبرهة ملك الحبشة بعده ابنه يكسوم ، ثم من بعده أخوه مسروق بن أبرهة وهو آخر ملوكهم. وهو الذى انتزع سيف بن ذى يزن الحميرى الملك من يده بالجيش الذى قدم بهم من عند كسرى أنو شروان.

سبب احتلال الحبشة لليمن :

أبنائى بناتى :

كما علمتم من قصة أصحاب الأخدود فإن ملك اليمن ذو نواس، كان يهوديا يكره دين النصرانية، وكان يضيق صدره ويطيش عقله عندما يسمع خبرا عن انتشار النصرانية - دين المسيح - عليه السلام- وعن أتباع النصرانية فى نجران الذين يزيدون عددا، ويتحلون بمكارم الأخلاق من التسامح والرحمة والمحبة، ويؤمنون بأن الله واحد لا شريك له.

وكان ذو نواس يحرق هؤلاء النصارى الذين تركوا شريعة اليهودية فيلقى بهم فى الأخاديد ويحرقهم بالنار.

وفر نفر من هؤلاء النصارى بدينهم إلى النجاشى ملك الحبشة، وكان النجاشى إذ ذاك نصيرا للنصرانية، يدين بها ويعتنقها. وعندما سمع بما قوله ذو نواس بالمؤمنين هب لنصرتهم، والثأر لهم، فجهز حيشا قويا كثير العدد والعدة ، وانطلق به إلى أرض اليمن، وهناك التقي الجمعان، ودارت حرب طاحنة، فذو نواس يحارب على أرضه، والنجاشى يثير في جنده روح الانتقام لإخوانهم النصارى الذين أحرقوا، ويحثهم على الثبات ومواصلة القتال وتتابعت الهزائم علي ذى نواس وأتباعه حتى أسلمت اليمن أخيرا إلى النجاشى، وأصبحت ولاية تابعة لنصارى الحبشة.

ودارت الأيام وأصبح أبرهة ملكا على الحبشة بعد أن بارز ملكها أرياض وقتله بمساعدة أحد أعوانه، ورأى الناس يهجرون الكنائس ويشدون الرجال قاصدين بيت الله الحرام.

وأراد أبرهة أن يغير هذا الحال ليعيد الحماس لدين النصرانية ويرضى النجاشي الذي غضب عليه لقتله أرياض.

فسأل أعوانه : أين يذهب هؤلاء الناس؟

فقالوا له : يحجون إلى البيت الحرام بمكة.

فقال بدهشة : وما هذا البيت؟

قالوا : بيت عتيق من حجارة.

فقال : لابنين للناس خيرا منه.

وأمر أبرهة رجاله ببناء بيت من رخام ووشاه بالذهب والفضة، ودهنه بالمسك والعنبر ، وجعل الأنوار تتلألأ فيه فكان هذا البيت كنيسة كبيرة كأنها ودرة عظيمة.

وأمر أبرهة الناس إن يحجوا إلي هذه الكنيسة بدلا من شد الرحال إلى البيت العتيق الذى بمكة وظن أن فخامة بناء القليس سيصرف حج العرب إليها.

لكن الناس لم تعظم هذه الكنيسة ولم تلتفت إليها وظلوا علي عادتهم يقصدون الكعبة المشرفة.

وغضب أبرهة، وعز عيه أن ينصرف الناس عن البيت الذى بناه وزينه وكلفه الكثير، وراح يلح على الناس للصلاة فى الكنيسة، وأن يقدموا القراين والذبائح إليها بدلا من شمشقة السفر إلى مكة. ولم يستجب له إلا القليل، حتى جاء اليوم الذى تسلل إليه أحد العرب وأحدث النجاسة داخل القليس

بجوار المذبح وكان أن عزم أبرهة على هدم بيت الله الحرام.

نتائج غزو أبرهة للبيت الحرام :

كان هلاك أصحاب الفيل نعمة من نعم الله الكبرى على قريش، فقد صان الله بيته الحرام عن شرهم وأبادهم، فأكبرت العرب قريشا، (عظموها وهابوها) وعظم شأنهم عند كبيرهم وصغيرهم، ولقى أهل مكة من قاصيهم (أبعدهم) ودانيهم (أقربهم) ترحيبا وإكراما وتقديرا فى كل مكان نزلوا به.

يقول تعالى :

﴿ لِإِيلَافِ قُرَيْشٍ (١) إِيلَافِهِمْ رِحْلَةَ الشِّتَاءِ وَالصَّيْفِ (٢) فَلْيَعْبُدُوا رَبَّ هَذَا الْبَيْتِ (٣) الَّذِي أَطْعَمَهُم مِّن جُوعٍ وَآمَنَهُم مِّنْ خَوْفٍ (٤) ﴾ [قريش]

ولقد كانت هذه الحادثة التى سجلها القرآن فى هذه السورة تذكيرا لقريش بهذا النبى العظيم الذي أخبرهم أهل الكتاب بزمن مولده وزمن بعثته، وحدثوهم عن صفاته وأخلاقه ومنهجه فى دعوته إلي الله. فأرخوا لمولده بعام الفيل ولم يعرفوا أنه النبي المنتظر.

وذلك لأن النبى ﷺ قد ولد يتيما فكفله جده عبد المطلب سيد قريش، فارتبطت ولادته بحادثة الفيل، لأنه ابن سيدهم أولا، ولأن جده كان له فضل كير فى حمايتهم من بطش أبرهة الأشرم وجيشه، إذ أمرهم أن يتحصنوا منه فى شعاب الجبال، ويتركوا مكة يحرسها الله عز وجل ويحمى بيته بقدرته.

وقد كان هلاك أصحاب الفيل إرهاص (مقدمة) لبعثة النبى ﷺ ، ولأن الأمة التى كانت وقتها كانت أمة شرك فلم تكلف بالدفاع عن الكعبة فتكفل ربنا سبحانه وتعالى بحفظ بيته والدفاع عنه.

وكان هلاك أبرهة وجنده درسا عظيما من تلك الدروس التى يتلقاها الجبابرة فى كل زمان ومكان على مدى التاريخ لعلهم يعتبروا ويعتبر من يساندهم ويؤيدهم وينافقهم.

كتلك الدروس التى تلقتها الأمم مما حل بقوم نوح وعاد وثمود وفرعون ذى الأوتاد وجالوت وغيرهم من الجبابرة على مر الزمان.

أبنائى الأعزاء:

والكعبة المشرفة لها تاريخ حافل فهى بيت الله الحرام قيل أن أول من بناها الملائكة ثم آدم ثم شيث ثم إبراهيم والحج إليها ركن من أركان الإسلام وشعيرة من شعائره وإبراهيم الخليل عليه السلام وجميع الأنبياء حج إليها والحج إلى الكعبة هو الركن الخامس من أركان الإسلام لمن استطاعس إليه سبيلا وفيها مقام إبراهيم من دخله كان آمنا وفيها الحجر الأسود يمين الله فى الأرض.

قال تعالى : ﴿ وأذن في الناس بالحج يأتوك رجالا وعلى كل ضامر يأتون من كل فج عميق ﴾.

رزقنا الله تعالى حج بيته الحرام. ومعنى يمين الله فى الأرض أى يشهد لمن قبله أو أستلمه أو أشار إليه يشهد له عند الله يوم القيامة.

الفهرس

تابع الفهرس